مجموعة قصص

أجمل يوم إختلفنا فيه

منى حلمى

تقديم
يوسف إدريس

مكتبة مدبولى

ص١٤ ، ص١٥ ؟
ص١٢٠ ، ص١٢١ ؟
ص١٢٦ ، ص١٢٧ ؟

أجمل يوم
إختلفنا فيه

إهـداء

إلى كل لحظة قلق أبقتنى خارج المألوف ،
إلى « ليلة الأحد » اختارتها الدنيا لأجىء إليها ،
واخترتها حين كبرت لأجىء إليك ، يا مَنْ أحب ،
إلى الشيء داخلى ، الممتع والمؤلم الذى يدفعنى للكتابة .. ومهما اتضح يظل غامضاً ،
إلى حروف اللغة العربية .. لم تمل احتضان جنونى ،
إلى أسرتى .. علمتنى العدل .. ضمنت حريتى ،
إلى ألحان « فريد » ، فى أقصى حالات الضيق ، تعيد حيويتى ،
إلى لحظات السباحة تحت الماء .. تحتفظ بى فوق العالم ،
إلى قلمى الأسود ، مهما أكتب لا يخلو من الحبر ،
إلى نفسى غير الراضية أبداً .. عن الدنيا .. وعنى لكنها لن تترك الدنيا ولن تتركنى .

منى حلمى

كاتبة جديدة وامرأة جديدة

لا زلت أذكر تلك الليلة ، كنت فى زيارة للصديقة نوال السعداوى وزوجها الدكتور شريف حتاته ، وهما فى غنى عن التعريف ، فنوال كاتبة مفكرة ثائرة قصاصة كتلة ملتهبة من الشمس ، انفصلت واستقرت على الأرض ولا تزال شمسية ملتهبة ، لم تبرد بعد ، ولا أعتقد أنها ستبرد . وشريف حتاتة قضى نصف حياته مسجوناً سياسياً ودرس الطب بنبوغ ولم يزاوله والآن أصبح من الروائيين الجدد المعدودين فى مصر .

كنت فى زيارة لهما وعرفانى بابنهما وابنة نوال (منى) صاحبة هذه المجموعة . من أول لحظة أحسست أن هذه الفتاة التى لا تتكلم إلا نادراً فيها شىء خفى ما . ولهذا لم أفاجأ أبدًا حين ذكرت لى نوال أن منى تكتب قصصاً . بيت من الكتاب ياله من بيت .

المهم قرأت لها القصة ، وفى الحال أحسست أنها كاتبة ، وستكون ، بل أيضاً أحسست نوع كتابتها ، إنها نساجة (كانافاه) من الأحاسيس الدقيقة التى تصدر عن نفس ناعمة جداً ، متمردة جداً طبيعية تماماً وغير طبيعية بالمرة .

وإذا لم تكن هذه صفات أو بعض صفات الفنان ، فماذا تكون .

شىء واحد فقط دفعنى كى لا أندفع فى التفاؤل ، مخافة أن تكون القصة التى قرأتها هى أول وآخر قطفة من قرص العسل .

ولكن ، يالفرحتى إن ظنى خاب . فقد راحت منى تكتب وتنشر ، وأرسلت لى منذ أيام مجموعة كاملة من قصصها استعداداً لإصدار كتاب .

وقرأت المجموعة .

صحيح أن الدائرة القصصية دائماً تدور حول منى ، منى الشابة الإنسانة ، الأنثى غير الراضية عن كل شيء ، ولكنها تفعل هذا بفنية ، وبعمق ، وبحكمة تتجاوز منها وذاتيتها ، وليس هذا غريباً على كاتبة شابة تقول على لسان إحدى بطلاتها (وبطلاتها دائماً فيهن شبه كبير منها) تقول :

وأخذت أستعيد علاقتي بقلمي ، تلك العلاقة التي لا أتذكر بدايتها ، كل ما أعرف أني أكتب منذ إدراكي أنني أشغل حيزاً في الفراغ ، منذ رغبتي ألا يظل فراغاً . أكتب منذ تساءل عقلي في عالم يثرثر ولا يجيب .. أكتب منذ أن ارتعشت عواطفي بحثاً عن الشمس .. أكتب منذ اكتشافي أنني امرأة في مجتمع يحركه الرجال ، علاقتي بقلمي حميمة تتجاوز إحساسي بالراحة ، تتجاوز فرصة مصادقة اللغة وفرصة انطلاق تجدد الأفكار . علاقتي بقلمي كعلاقتي بملامحي وأعضاء جسمي ، علاقة نفسية وعضوية ، أحملها داخلي ، أتنفس بها ، أتحرك خلالها ، أحلم معها ، أغضب من أجلها وأهدأ فيها .

اقرءوا معي إذاً هذه المجموعة منى حلمي . والجديد فيها أنها قد تبدو من الخارج ذاتية ، ولكن معظمها يصل إلى مياه أعمق بكثير ، إلى إحساس جديد ، لإمرأة جديدة ، حتى لو كانت كاتبة قصة جديدة .

د. يوسف إدريس

رغبة المشاهدة في النوم

(١)

أخيراً كتبت .

لا أصدق انتهاء الحصار ، لا أصدق نوال الحرية .

لايهم الشكل أو المضمون ، لايهم العنوان ، لايهم عدد الصفحات ، لايهم وجود النقاد أو غيابهم ، ولايهم عدد القراء .

الأهم أننى كتبت . والأجمل ، أننى أكتب عن عجزى الماضى عن الكتابة . وهذا تجاوز لكل احتمالات تفكيرى وقدرات تخيلى . الآن أشعر للمرة الأولى أن الحقيقة قد تأتى أمتع من الأحلام .

يا لها من فترة يؤلمنى حسابها ، تلك التى مرت وأنا ممتلئة برغبة ملحة فى لمس القلم . منذ فترة أريد — كما لم أرد شيئاً من قبل — أن أكتب . وعاجزة عن الكتابة كما لم أعجز عن شىء من قبل .

وتساءلت لم أقاومها ، ولدىّ كل المؤهلات ؟

لدىّ قلمى الأسود أحس اشتياقه إلى لمس أصابعى .. لدىّ وفرة من الأوراق تحن للامتلاء .. لدىّ وفرة من الوقت . بداخلى تنوعات من الفكر ممتزجة بما قرأت وبما عشت . أستطيع — ربما أكثر من أى وقت مضى — استعادة الأشياء ، وما زلت قادرة على الحلم ، المكان المخصص فى حجرتى للتأمل والكتابة مضاء . أذكر قواعد اللغة العربية وليس هناك ضوضاء . وطقوس إبداعى — كالمعتاد — موجودة : أنغام هادئة .. فنجان القهوة السيجارة

(٢)

رائحة البخور ، كلها تترقب دخولى المحراب وعلى غير المعتاد لا أدخل .

جربت الكثير من متع الحياة . جربت متعة القراءة ومتعة السفر .. جربت الحب .. جربت متعة التميز فى العمل .. جربت الرقص وجربت متعة التأمل فى حكمة القدر . لكننى لم أرتشف إلا عند ذلك الطعم من النشوة يلوننى وأنا ممسكة بالقلم : ترقب مقبل على الحياة .. دفء غامض .. رعشة ساحرة .. إحساس مفاجىء بالبهجة . وحين يتعانق القلم والورقة ، تحدث لحظة تصاب نادرة تهبنى النشوة والكلمة . تهبنى أمومة أصنعها وحدى دون رجل .

أستعيد التجربة ، فأشتاق إليها .

ورغم الاشتياق ، فإننى أهرب .

لا أنكر أننى اعتدت الاعتقاد بأن الهروب قد يحوم حولى .. وبأننى وجود وقع منذ زمن فى غرام عدم التشكل واللانتماء . أمر واحد ظل يهرب من هروبى .. أن أكتب .

« أنا أكتب » ، إذن ما زلت قادرة على التشكل وعلى الانتماء « أنا أكتب » ، إذن ما زالت الحياة تستحق الحياة . والآن ، ترتبك أفكارى وتحتار ، فأنا لا أفهم فقط ما يحدث لى ، بل أخاف أيضاً من معناه .

فكيف أفسر عجزى عن الأمر الذى اخترته عنواناً لحياتى ؟ كيف تهرب نفسى من الفعل الوحيد الذى يجعلها ويبقيها نفسى ؟

المهم الآن .. أننى كتبت .

لن أتذكر بعد الآن ، تلك المرات العديدة وأنا جالسة أنتظر شيئًا يحدث فى الكون لأكتب . وبعد عدة ساعات ، لا شيء يحدث فى الكون . أنتهى بصمت

حائر ونظرة شاردة إلى أعقاب السجائر وفناجين القهوة . أنظف المكان . أغسل الفناجين وأعيد كل شيء إلى مكانه .

وأعود أنا إلى الفراش . فى يدى اليمنى كوب ماء . وفى يدى اليسرى قرص أبيض اللون لحالات الصداع .. آخر أصفر اللون لحالات عدم الفهم ، وقرص ثالث لا لون له لحالات التوتر يقف فى حلقى .

المهم الآن ، أننى كتبت .

كانت إذن مرحلة عابرة أخذت وقتها ولم تأخذ قدرتى على الكتابة . أشعر برغبة فى عتاب نفسى . لم قلقت وحزنت ؟ مَنْ يدرى ، ربما مر الوقت أسهل لو أخذت الأمر ببساطة .

المهم أن شيئاً — أخيراً — قد حدث فى الكون .

واندهشت حين استعدت مع الكتابة أشياء لم أحس غيابها إلا حين عادت .

هل يمكن أن أدع هذا الأمر يمر دون احتفال ؟ بالطبع لا . لا بد أن أحتفل بعودتى إلى قلمى .

ليس هناك أجمل من هذه العودة .

ولكن كيف أحتفل ؟ كيف ؟ وشردت أبحث عن وسيلة لا تقل جمالاً عن سبب الاحتفال .

ثم فاجأنى شرودى بالتوقف على صوت مألوف ، يرسل كلمات مألوفة ، على إيقاع متعجل :

« ألن تستيقظى للذهاب إلى العمل .. الساعة تدق السابعة . »

ديسمبر عشقاً وتساؤلاً

أترقبه بحذر .. أستيقظ — على غير المعتاد — قبيل الفجر .. أتلفت حولى فى دهشة شاردة تدهشنى .. أندفع إلى طعام لا مكان له فى معدتى ، لا شهية له فى نفسى .. أظل فى حركة لا مبرر ولا مساحة لها .. أضيق بالجدران .. أضيق بحدود جسدى .

كآبة مفاجئة ذات مرارة خاصة ، تدخلنى دون استئذان .. دون تفسير . وتجبرنى على تذوقها .. وتوقع متوتر لشىء يأبى الافصاح عن هويته .

يحدث لى هذا بانتظام كل يوم خميس .

لم تنجح محاولاتى رغم تنوعها .. ورغم ذكائها ، أن تقاوم هذا الأمر المتكرر نهاية كل أسبوع ، لم ينجح عقلى رغم كثرة تأملاته ، فى فهم لماذا يحدث ولماذا بالتحديد يوم الخميس دون سواه .

هذا الأسبوع ، قررت أن يكون فقط ست أيام ، ألا يحدث يوم الخميس . قررت أكثر من المرات السابقة . ولا أدرى سبب هذا الاصرار . هل هو التعب من تكرار الفشل ؟ هل هو التحدى الحتمى بعد تراكمات العجز ؟ هل لأننى — بعد — لم أفقد ثقتى بعقلى ؟ أم لأن الليلة الخميس الأخير من « ديسمبر » ، ويأبى عشقى لهذا الشهر أن أجعله يمر هكذا كبقية الأشهر ، دون أن أثبت مدى العشق .. دون أن أثبت أن العشق قادر على فعل التغيير ؟ أم لأننى لا أريد استقبال عام جديد بإحساس قديم ؟ .

أخذت أفكر فى إمكانيات المقاومة التى يتيحها العالم حولى .

فكرت كثيراً ولم أهتد بعد . فكل ما يمر بخاطرى جربته من قبل ، وكل ما لم أجربه ، لا يحرك إلا قشور انفعالاتى .. لا يثير إلا كلمات المجاملة ولا ينتزع من ملامحى إلا ابتسامة مغتربة أو نظرة أصابها الملل .

« شيء غير عادى » ، هذا ما أبحث عنه .. هذا مالا أجده . . .

يمر وقت طويل .. يأتى المساء ، وأنا ــ بعد ــ حائرة .

وفجأة ، أنتفض .. تبرق مقلتاى .. ابتسامة مرتعشة تهتدى إلى ملامحى .. ودقات قلبى لم تعد قانعة بمكانها فى قلبى .

« شيء غير عادى » ، الآن يداعب ذاكرتى . بل الشيء الوحيد الذى استطاع أن يستمر « غير عادى » منذ بدايته . فجأة ، أحس به يتخللنى برقة .. بعمق .. يسألنى دون صوت .. ينادينى دون نداء هل أجيب ؟ وهل ألبى النداء ؟.

فجأة ... تذكرتك .

نعم تذكرتك أيها الحبيب القديم ، قدم معرفتى بالحب . لم يتغير شيء عنك ، كنت دائماً ــ وما زلت ــ مفاجأة . تفاجئنى بذكراك حين لا أتوقع ، تماماً كما فاجأتنى بأول لقاء ، وكما فاجأتنى بآخر لقاء .

عام عشناه معاً .

كنت فى العشرين من عمرى ، أكبرك بعامين . وانطلقنا بسنوات عمرينا الصغيرة نكتشف الدنيا الكبيرة . عرفتك بعد تجربة لم ترض أحلامى فى الحب ، فابتعدت ، وكان الابتعاد ضرورياً للاقتراب منك . معك ، عرفت أول حب حقيقى أسعد قلبى . أما أنت ، فلم تعرف امرأة قبلى . ولا تتصور كم أسعدنى هذا الأمر . شعرت أننى مسئولة عنك وأمامك . مسئولة عنك ، لأننى أكبرك .

مسئولة أمامك لأنني أعطيك لأول مرة صورة الحب مع المرأة وأتحمل وحدى تشكيل رغباتك الأولى . وأدهشتني استجابتك ، وكأن ماضيك لم يكن إلا تاريخ حبك لى .

والآن يدهشني تغير علاقتنا .

تدهشني قدرتنا — بعد تذوق الحب — على الاكتفاء بالصداقة .

يقولون : « قد تتحول الصداقة إلى حب ، لكن الحب لا يتحول إلى صداقة » أعود متسائلة ، لم الدهشة . كنا منذ البداية استثناءاً ، فلم يدهشني استثناء النهاية .

هل أعترف لك بشيء الآن ؟

فى كل مرة أفكر فى زيارتك ، تشملني حالة انتشاء مقبل على الحياة .. وأستعد لرؤيتك كأول الحب بيننا .. فرحة طفولة فى خطواتى ، وبريق له كل الألوان فى عيونى .

شىء غريب حقاً . فأنا مقتنعة بأن حبنا كان جزءاً من دورة التاريخ ، لن يعود . وسعيدة جداً بصداقتنا الجديدة ، كما أننى بعدك أحببت .

لكننى فى كل مرة لقاء ، أشعر بالحرارة نفسها التى احتوت حبى لك .

لم تتغير .. لم تخمد . كما أننى لا أزال أشعر بمسئولية تجاهك . وأنت تعرف هذا ، فلا تتردد فى الاتصال كلما احتجت شيئاً .

زالت الحيرة بتذكرك . سأزورك الليلة . أعرف أنه وقت طويل منذ آخر لقاء ، لكننى لن أسمح لنفسى بلحظة تردد . لا بد أن أراك الليلة .

أجرى إلى حجرتى لأرتدى ملابسى . وإذا بنفسى توقفنى وتسألنى : « ولم لا تزورين مَنْ تحبين ؟ لم تلجأين إلى مَنْ يمثل لك الآن العشق والفهم ؟ » .

سؤال كوجيه يا نفسى ، وأكثر وجاهة منه التوقيت . أنا لا أنكر أنه حبيب رائع ... متفهم ... هو شاطىء ظللت طول عمرى أسبح ضد التيار بحثا عن رقة شمسه ونعومة رماله ..

لكننى ابتعد حين يختل توازنى ، ولا أندم حين أقع دون أن يعلم . فى البداية أدهشنى ابتعادى . فالحب كما أراه مشاركة فى لحظة اغتراب أكثر منه مشاركة فى لحظة انسجام . لكن كل ما أفعله مع مَنْ أحب ، يناقض ما أؤمن به .. يناقض ما عشت أنتظره من الحب .

أخذ الأمر وقتاً طويلاً ، حتى تلاشت الفجوة بين عقلى وسلوكى . اكتشفت أننى فى لحظات أزماتى ، أتعمد الابتعاد . لا أريد أن أخلق ادمان الاحتياج لأحد ، حتى لو كان مَنْ يعشقه قلبى بل بالذات معه . قد أتعب أكثر .. قد تستغرق الأزمة وقتاً أطول .. قد أفقد أعصابى وحيويتى أكثر مما يلزم وقد تشل حركتى تماماً . لكن كل هذا أهون عندى ألف مرة من أن يختل توازنى ولا أجده ، أو أجده لكنه مشغول ، أو غير مشغول ولكن حالته أو مزاجه لايسمح لاحتواء أزمتى .

هل باسم الحب أفرض عليه التفرغ لحالاتى الاستثنائية ؟

أيضًا ، يخالجنى إحساس قوى أننى مهما أحببت ، سأعيش دون شريك . لذلك فإننى حريصة على تدريب نفسى أن تكون ملجأى الأول والأخير . ولا ولاحظت أننى اكتسبت مناعة داخلية ، أستطيع بها — أكثر مما مضى — عبور أزماتى وحدى .

شىء آخر يسعدنى فى هذا الحرص . اكتشفت أن ابتعادى فى لحظات أزمتى ، لا يبعدنا . بل أعود إليه أكثر اشتياقاً .. أكثر ثقة فى نفسى ... وأكثر قدرة على الحب .

وبينما أستعد للنزول ، رن جرس الباب . توقفت ، ترى مَنْ يكون ؟ مَنْ

يزورنى دون موعد ؟ مَنْ يزورنى مساء الخميس ؟ لا أتصور أن يفسد أحد ما قررته الليلة .. لكن لم لا ؟ اليوم الخميس .. اذن كل احتمالات الدنيا واردة .

فتحت الباب وتجمدت للمفاجأة .

انه هو .. هو أمامى فى اللحظة التى تريده .. هو ، أمامى مساء الخميس .. هو — كعادته — يفاجئنى . ما الأمر ؟ هل يشعر مثلى بكآبة غامضة ويحتاج وجودى لحل الغموض؟ أهو الحنين إلى صداقة قديمة تعطيه لمجرد لذة العطاء ، أهى صدفة أن يتواجد قريباً من بيتى ، هل تكون زيارته الليلة بداية تغير إحساس بيوم الخميس ؟ هل أحس أننى الليلة أحتاج صديقاً ؟ هل .. وهل .. تساؤلات سريعة تنتقل من دهشة ملامحى إلى عينيه وتوقفت قبل أن تبتدى . فهو لم يكن بمفرده .

بصوته الغائب عنى طويلاً قال : « معى ضيفة » .

دعوتهما إلى الدخول جلسا متقاربين بشكل يُفهم منه أنها أكثر من ضيفة . قال : « أولاً أعتذر عن المجىء دون موعد ، خاصة أن الليلة الخميس ، لكننى حاولت الاتصال عدة مرات ويبدو أن .. قاطعته قائلة : « معك حق ، فالتليفون معطل منذ أيام » .

نظر إلى الضيفة وبابتسامة رقيقة قال : « زوجتى .. مفاجأة ، أليس كذلك ؟ » . فى الحقيقة فوجئت . ليس لأنه تزوج ولكن لأن زوجته تحمل اسمى .

أكمل حديثه : « تم الزواج منذ أسبوعين وكل شىء حدث بسرعة ، لم تكن هناك فرصة لإخبارك » .

قلت : « إنه حظى السىء ، كنت أود الاحتفال بكما .. على كل حال مبروك » .

تكلمت الضيفة الحاملة اسمي ، وهي ترسل نظرة مشتاقة إلى صديقى : « هل تعرفين أنه كثيراً ما يتحدث عنك . يقول انك الوحيدة التى تفهمه . لقد أصر على أن نزورك الليلة رغم أننا ما زلنا فى شهر العسل .لا أخفى عليك أننى شعرت بالغيرة » .

نظرت إلى الخاتم الذهبى اللامع فى يدها اليسرى وبابتسامة قلت : « لا أعتقد أنك ما زلت تغارين » . ابتسمت وهى تنظر إلى صديقى .

صمت يتنقل بيننا ونحن نشرب الشاى . بادر صديقى بقطع الصمت : « سنسافر غداً إلى الاسكندرية تمضية بقية شهر العسل » .

قلت : « الاسكندرية جميلة جداً فى الشتاء » .

نهضت الضيفة وأخذت تتأمل محتويات الشقة .

أنظر إليه أحاول أن أقول شيئاً . عيناه العسليتان لاتزالان تحتويان صداقتنا القديمة ، فأتوقف عن المحاولة .

سألنى : « ما أخبارك ؟ ما الجديد فى حياتك ؟ اننى أتابع كتاباتك بحرص شديد ، ليس فقط لأننى أحبها ولكنها عزائى الوحيد حين تطول فترة ابتعادنا . هل ما زلتِ فى مكان العمل القديم ؟ أتذكر رغبتك فى تكملة الدكتوراه : فهل بدأتِ ؟ هل أحببتِ ؟ هل سافرتِ ؟ أشعر أنه يبذل جهداً لحملى على الكلام .

لكننى — لا أدرى — لا أجيب .

يكمل : « ماذا بك ؟ » آه .. انه صمتك الدائم المعتاد . أعرف أن وراءه الكثير . تكلمى ، ما الأمر .. هل نسيت أننا أصدقاء ؟

وفى اللحظة الوحيدة التى أردت عندها الرد ، تأتى زوجته وتقول : « أحسدك على شقتك ، كم هى رائعة » .

« شكراً » . أرد بحياد وكأن الأمر لا يعنينى .

أتركهما وأذهب إلى حجرتى . أمام المرآة أقف شاردة . لحظتها تمنيت لو كان فى مقدور المرايا أن تعكس ملامح الداخل بدلاً من ملامح الخارج . أشعر بارتباك وفوضى فى عقلى .. لا أستطيع تحديد احساسى .. لا أعرف ماذا سأفعل . يوم الخميس لم ينته بعد . كآبته حاضره : « والشىء غير العادى » أصبح صعب المنال خاصة الليلة . وبسرعة لم أتوقعها ابتعدت عن المرآة .. التقطت بعض أشيائى .. وضعتها فى حقيبة سوداء صغيرة ، وخرجت إليهما .

رأيتهما فى وضع متقارب ، ينظران إلى النيل .. احتضان رقيق يعلن عن أشواق شهر عسل غير منته . بهدوء ابتعدت وأدرت موسيقى هادئة . وجلست على مقعد فى الصالة يواجه الباب الخارجى . بعد لحظات ، جاءا مبتسمين . قلت : « أعتذر عن النزول الآن ، كنت أستعد للخروج قبل مجيئكما بلحظات .. رجائى أن تبقيا هنا الليلة ولا داعى لأى نوع من الكلفة » .

يسألنى صديقى : « أحقاً مرتبطة بموعد .. هل .. » قبل أن يكمل أرد مرسلة نظرة إلى زوجته : « بالطبع مرتبطة . هل نسيت أن الليلة الخميس ، ليلة السهرات . أنه عيد ميلاد احدى صديقاتى وسأقضى الليلة عندها . فهى تسكن بعيداً وسيكون أمراً مرهقاً أن أقود سيارتى بعد الحفل » .

ترد زوجته : « لقد أحببت شقتك جداً .. فى الحقيقة هى مغرية » .

قلت : « أرجو أن تستمتعا فيها بليلة شهر عسل ممتازة . هذا أبسط احتفال يمكن أن أقدمه الآن » .

صديقى فى حالة صمت ، يخاطب ملامحى بشىء لم أرد التفكير فيه . بفرحة تقول زوجته « نشكرك كثيراً ، بالطبع ستكون ليلة مختلفة » . أقول بنظرة تنتقل بينهما « لا داعى للشكر . اننى أنا التى يجب أن تقدم الشكر » .

لم أدع الدهشة تكتمل على ملامحهما وأكملت : « هذه الجدران تحاصرنى ، دائماً باردة ، دائماً صامتة . والليلة سيعطيها حبكما فرصة نادرة لأن يتخللها الدفء وأن تحاول الكلام . أشكركما لأن بيتى اكتسب أهمية أكبر من مجرد مكان يحتوينى .. أصبح فى ليلة شتاء شاهداً على ليلة حب » .

« آه .. نسيت .. أنت تعرف البيت جيداً وكل شىء موجود » . أقول بسرعة موجهة كلامى إلى صديقى الذى ما زال مصراً على الصمت الخاطب ملامحى .

بشىء من السرعة .. ومن الارتباك ، التقط حقيبتى السوداء الصغيرة وأترك المكان ، قبل أن أسمعه يناديها باسمها فأخطىء وأعود .

هذا أول مساء خميس ، أجد نفسى وحدى فى طريق لا اسم ولا هدف له .

أهو يوم خميس ككل أيام الخميس الماضية ؟ هل حقاً وحدى ؟ أليس لهذا الطريق إسم ؟ لماذا أسرعت بالخروج ؟ لماذا ارتبكت ؟ أين سأقضى ليلتى ؟ هل نسيت مفتاح الشقة فى غمرة تسرعى وارتباكى ؟ هل هما سعداء الآن ؟ وماذا عنه ، هل يقلقه اسراعى بالنزول ، هل كان علىّ البقاء ؟ هل .. وهل .. تساؤلات ترافق خطواتى ، تداعب فكرى غير المرتب وتمتزج بقطرات المطر التى بدأت الآن فى السقوط .

وفجأة أوقفت خطواتى وتذكرت شيئاً .

أول ليلة حب معك ، كانت فى ليلة شتاء ممطرة . وبالتحديد فى « ديسمبر » . والليلة — يا المصدفة — بعد فترة طويلة — « ديسمبر » يعود .. أنت تعود .. المطر يعود والمرأة عادت .. بشكل مختلف .

كم تغير يوم الخميس ، وكم تتغير الدنيا .

ولكن هل تتغير كثيراً ، وهو الآن لا يستطيع أن يهمس لها بأية كلمة

حب ، إلا وبين شفتيه اسمى ؟!! .

تأمل عالم

يداك

وأخذت أتنفس

الأشياء حولي

٣٠

عالم آخر غير الذى نعيشه طوال الأحدى عشر شهراً ، يطل علينا خلال رمضان . عالم ، تمنيت دائماً التعرف عليه والنزول إليه . لكننى طوال عمرى المقترب من الثلاثين عاماً ، لم أنزل إليه ولم أتعرف عليه .

ولم أدر سبباً لهذا الأمر ، غير المتسق مع طبيعتى . فأنا أحب الحركة فى عوالم جديدة ، يثيرنى الاختلاف ، وأعشق لمس التغير .

وبالأمس جاءتنى — حينما لم أكن أتوقع — دعوة من صديق عزيز للتعرف على ما أتوق لمعرفته .

كان الوقت ليلاً . وليل رمضان ليس ليلاً . ليل رمضان نهار غير عادى ، مشرق بالأضواء والحركة ، باغراءات هجر البيوت الحارة لمن لا يقدر إلا على السير والفرجة . واغراءات تفريغ ما فى الجيوب لمن يقدر على أكثر من السير والفرجة . أسماء المحلات مضاءة باللغة العربية واللغة الانجليزية وتحت الاسم الأجنبى آيات قرآنية ودعاء إلى الله . اعلانات مزينة تعلن عن بشرى لم يسبق لها مثيل « ملابس من باريس للمحجبات » . صفوف من أكوام المكسرات .. مكبرات الصوت تلقى العظات الحسنى وأخرى تنافس ضجة العربات وتحاول تكملة آية قرآن . رائحة الشواء فى رمضان مختلفة .. رائحة نفاذة يمتد كرمها إلى كل المارين فى الطريق ، وتُمنى النفس بسحور لا يقاوم . رائحة البخور تتناثر فى الهواء وباستحياء وتتساءل « هل ما زالت أثير فى النفوس شيئاً من الماضى » .

أتأمل عالم رمضان من السيارة الصغيرة البيضاء . عند كل إشارة مرور ، تمتد يدان ، يد تحمل الفل ، يد تحمل طفلاً بائساً ، والاثنتان تتنافسان فى أخذ ما يرضاه النصيب . يد أخرى تجرى توزع آيات قرآنية ويدعو صاحبها إلى التبرع لإقامة مسجد .

يسألنى صديقى « مَنْ يراك بهذا التأمل ، يعتقد أنها أول مرة تخرجين فيها . هل نستمر أم أوقف السيارة » . وتأتينى كلماته من أفق بعيد .

تدهشنى فى ليالى رمضان ازدياد تغطية الأماكن المثيرة للفتنة فى أجساد النساء واختفاء الزينة . والرجال — أخيراً — وبعد ما يقرب من الألف وخمسمائة عام يعملون بالنصيحة ، ويغضبون من أبصارهم .

توقف تأملى فجأة على توقف سيارة صديقى . أجابنى قبل أن أسأله « هذا أشهر محل للعصير ، ما رأيك فى كوب من الفراولة ؟ » قلت : « لا أحب الفراولة . » قال : « مانجو ؟ » قلت : « لا أحب المانجو » وقبل أن يقترح شيئاً آخر قلت : « أحب عصير القصب » . سارع بالرد « صحيح ، نسيت » بعد لحظات ، جاءه رجل يرتدى بدلة حمراء ويسأل فى أدب — غير مألوف — عن الطلب . قال صديقى : « واحد قصب وواحد فراولة من فضلك » .

لاحظت صفوف السيارات المنتظرة على الجانبين ولفت نظرى عبارة « لا إله إلا الله .. محمد رسول الله » . على الزجاج الخلفى لأغلب السيارات الواقفة أو تلك المارة قريبة من سيارتنا .

اعتدلت فى جلستى لأواجه ملامح صديقى . منذ فترة لم نخرج معاً ، وأول مرة نخرج فى رمضان . اشتياق طويل لكل شىء دافىء فيه ، يمتزج باشتياق لعصير القصب المثلج .

وأخذت أتنقل بين ملامح صديقى الغائبة وعالم رمضان النازل ضيفاً علينا . الأشياء حولى توحى بإطلاق سراح متعة مسجونة دون مبرر ، النظرات

والابتسامات توحى بوعود فرحة غامضة .. ونشوة مترددة بين الطرقات حائرة متى تتحقق . أصوات مرتفعة تنادى الأسماء .. تنادى البائعين ، وتنادى دون خجل حبيباً غائباً أو حبيباً موجوداً لا يعلم بأمر الحب .

جاء الرجل بالعصير ، ورغم أنه كان أقرب إلى نافذتى ، إلا أنه تحمل مشقة الدوران واتجه إلى صديقى وقدم الصينية قائلاً : « اتفضل يا باشا » . قلت لصديقى : « يعرف انك ستدفع ثمن العصير » ضحك صديقى ضحكته التى افتقدتها طويلاً « هذه الأيام ، سهل جداً الواحد يصبح « باشا » ، فقط يشرب قصب « قلت » لا .. فراولة . » وتبادلنا ضحكة غريبة على فترة ابتعادنا .

امسكت بالكوب وما أن لمست شفتاى المشتاقة أول رشفة حتى تجمدت نظرتى على حركة ولد صغير يهرول بين السيارات . اقترب منا ، أسنانه صفراء ، ملابسة مرقعه بكل الألوان وتظهر جسمه النحيل أكثر مما تخفيه .. شعره ناعم ، واقف يتحدى هواء الليل ، تنتشر على جلده بقع بيضاء وصفراء وحمراء .. فى يده فوطة لا لون لها . أسمر وحافى القدمين .

لم أذق بعد العصير . عينا الولد ، صمته المتردد فى الكلام والممتزج بأمنية لم أستطع الغوص إليها ، ملامحه التى تجاوزت عمره الذى لم يتجاوز العشر سنوات وأرسلت إلىّ ملامح قرون من الزمن ، أشياء تفوقت على اشتياقى لعصير القصب .

بدأ يمسح زجاج سيارة صديقى وهو ينظر إلىّ . استجاب إلى نظرتى الثابتة . ومن شدة استغراقه ، كاد أن يصدم بسيارة . أنزلت عيناى وشعرت بالخجل . وفجأة جرى مسرعاً إلى سيارة تستعد للتحرك .. على زجاجها الخلفى عبارة التشهد وتحتها عبارة أخرى بالانجليزية تقول « أنا أحب أمريكا » . مد الولد يده السمراء المتسخة ناحية السائق وقال كلمات لم أستطع سماعها .. نظر إليه السائق من أعلى إلى أسفل ولم يعطه إلا ورقة منديل متسخة

وتلويحه بيده أن يفسح الطريق .

سألنى صديقى : « ما زلت تتعرفين على عالم رمضان ؟ لم لا تتأملين وأنت تشربين العصير ؟ » .

أخذت أرشف العصير . وكل رشفة كانت أى شيء إلا القصب المشتاقة إليه . أنظر إلى الكوب بكراهية . أنظر إلى صديقى باتهام .. وأنظر إلى السيارة باشمئزاز .

تركت نصف الكوب ممتلئاً بالقصب والنصف الآخر بعصير آخر من أشياء غير محددة .

جاء الولد مرة أخرى .. اقترب منى .. اقترب أكثر ، فشعرت بابتعاد مفاجيء عن كل ما حولى . لم أستطع منع التساؤل عن نفسى . أشركت صديقى . قلت : « تصور ، ما زال الناس يصرون وقد يتقاتلون من أجل انجاب الأطفال من لحمهم ودمهم وأمامهم ملايين مثل هذا الولد » رد صديقى : « أنا شخصياً تجذبنى بشرته السمراء ، وعيناه الوديعتان . لكن بالطبع ليس الأمر فى البشرة والعيون فقط » قلت : « هل تندهش لو قلت ان هذا الولد تشرفنى بنوته » . رد برقته المعتادة : « كيف أندهش وأنا أعرفك » .

اقترب الولد ناحيتى يريد ثمن مسح زجاج السيارة . قارنت بينه وبين الجرسون الذى فضّل صديقى . هو ، جاءنى أنا مباشرة دون أن يهدينى لقباً ، دون أن يقول : « ربنا يستر عرضك » . جاء بالفوطة وذكرى نظرتى فى عينيه . اكتفى بلمعان الزجاج ولمعان عينيه .

طلب صديقى كوباً آخر من الفراولة .. ابتعد الولد مرة أخرى وجرى إلى سيارة تقترب من المحل . بسرعة فرد الفوطة وبدأ يلمع الزجاج الخلفى المزين بعبارة « هذا من فضل ربى » . لكن الرجل المتحكم فى القيادة ، كان أسبق من

يديه السمراء ونهره قائلاً : « يا ساتر يارب .. أعوذ بالله ورانا ورانا فى كل مكان .. يا سيدى مش عايزين تلميع .. عايزين عصير .. أف » . ردت امرأة محجبة بجانبه : « مش معقول كده مش لاقى غيرنا تشحت منه » . ولأول مرة اسمع صوت الولد فى نبرة عالية : « أنا لا أشحت » . وجرى واضعاً الفوطة تحت ابطئه .. ثم جلس على الرصيف .

نظرت إليه نظرة لا تقوى على النظر إليه ..

انتهى صديقى من العصير . جاء الجرسون ونظر إلى كوب القصب نصف الممتلىء .. اندهش ، لكنه لم يعترض على سلوك صديقه « الباشا » . دفع « الباشا » الحساب تماماً كما توقع الجرسون . وبدأت سيارتنا فى التحرك . وقبل أن نغوص مرة أخرى فى عالم رمضان النازل ضيفاً علينا ، يأتينا الولد . أخرج كيس نقودى وأعطيه شيئاً وتعمدت لمس يده السمراء المتسخة . نظر إلى المبلغ وهو يمنع ابتسامة من الفرحة وقال : « هذا كثير » . قلت : « أريدك أن تشترى حذاءً » .

ترك الابتسامة حرة على شفتيه . وهنا بدا عمره الحقيقى . وتساءلت : « أين ذهبت قرون الزمان الساكنة ملامحه منذ لحظات » ؟

تحرك صديقى بالسيارة عدة أمتار . تذكرت شيئاً . لم أطلب منه الرجوع ، نزلت أنا إلى الولد . فوجدته ما زال ناظراً إلى المبلغ . اقتربت من جسمه المتكوم على الرصيف وقلت : نسيت شيئاً هاماً ، ما اسمك ؟ سألنى متلفتاً حوله « اسمى أنا » . قلت : « نعم ، اسمك أنت » قال : « رمضان » .

لا أستطيع الليلة

الساذج .. هى تفكر دون حواجز وتثق فى عقلها حين يعبرها . ترد عليه « كيف تستطيع امتلاكى وأنا لست شيئاً .. أنا حياة تتدفق أمامك ، هل تستطيع امتلاك الحياة ؟ أرجوك عشنى » .

لم يفهم ما تعنيه أو فهم لكنه لم يعرف كيف يعيشها دون امتلاك .

ينظر إلى صورتها التى أعطتها له منذ سنوات وهمس لها يقول « أعذرينى ان عجزت .. صدقينى ، حاولت أن أعيشك ، لكننى تعبت ، تعبت جداً .. كيف أعيشك وأنا لا أعيش نفسى » . هل أطلت عليك الحديث . اعذرينى .. فأنا الليلة أعطى نفسى حقاً طالما استمتعت به .. الليلة عيد ميلادى هل تذكرين . اتركينى — كما عودتينى — أرتاح لديك ولا تتعجل اعترافاتى .

هل تعرفين لماذا توقفت عن محاولتى أن أعيشك . أدركت منذ البداية ارتباطاً بين أن أعيشك وبين إحساسى بحريتى .. اننى لا أفهم إلا الامتلاك ، لأننى ملك لهم .. قد تسألين مَنْ هم ، كثيرون بأسماء مختلفة يشتركون فى ملكيتى ويوزعون عائد الملكية بينهم كل فترة .

متى كانت البداية ، متى كان أول حصار . لا أذكر بالتحديد . هل تكون أول كلمة « عيب » أوقفت اللعب فى طفولتى .. أتكون أول كلمة « لا » نهرتنى بها أمى لأخفى دموعى .

وتراكمت الدموع .. حتى تلك الليلة ، هل تذكرين حبيبتى ؟ أدهشتك الكلمة ، أعرف وسأجيبك قبل أن تسألينى . نعم ما زلت حبيبتى رغم الفراق الطويل ورغم هذا الخاتم الذهبى المحاصر اصبعى فى اليد اليسرى .

حبيبتى ، أتذكر كل شىء كأنه الأمس . وهل أستطيع نسيان أول مرة أبكى فيها . هل أنسى أول ليلة صدق . كم كنت رقيقة ومتفهمة لكل قطرة دمع . شعرت بحقيقتى لأول مرة . وهى اللحظة نفسها التى شعرت أننى أحبك .. كم هو جميل أن يرتبط الصدق بحبك .. وكم هو معذب .. أدركت

أنك حب لا أقدر عليه .

قالت لى أمى : .. تمنيتك دائماً طبيباً مشهوراً ، فلا تخيب أملى .

وقضيت عمراً محاصراً بكتب ضخمة ودروس خصوصية تأكل الوقت والعقل والمورد الوحيد الذى يأتى لأمى . واندهشت كيف بروحى المريضة أبعد المرض عن الناس .

وتفوقت . ودخلت إلى عالم غريب .. واكتشفت — حبيبتى — شيئاً خطيراً . اكتشفت أن نجاحى فى الحياة معناه أن يمرض الناس . قد تسألينى ماذا فعلت بعد هذا الاكتشاف . أصبح لى عيادة فى وسط البلد يتحدث عنها الجميع . بالطبع كانت أمى وراء هذا الانجاز السريع .

يا لها من صفقة غير عادلة . عمرى مقابل عدة لحظات تشعر فيها أمى بالفخر . ودائماً تساءلت حين ترفع صوتها مشيرة إلىّ أمام الناس « ابنى الدكتور .. » هل تكف كلمتان لتعيش عمرها الضائع ؟!

والتقينا مرة بعد فترة طويلة . رأيتك أكثر اشراقاً وكنت أكثر مرضاً فى روحى ، اقتربت منى ، احتضنت يدى وسألتنى . قلت : أختنق . اقتربت أكثر ، تلاشت المسافة بيننا ، اختلطت أنفاسنا وذبنا فى قبلة لم تميز بين أشواقنا وحرارة دموعى . زال الاختناق ، لكنه لم يكن كافياً . كنت أحتاج إلى أكثر من قبلاتك لأواجه حياتى .

أراها كل صباح ، وإليها أعود كل مساء . يقولون زوجتى . أعرف ملامحها .. رائحتها ولا أعرفها . يحاصرنى اسمها حول معصمى ، وأحياناً حول رقبتى.تعاملنى كإله وليس كرجل.أمى تصفها « زوجة فاضلة » . فى البداية لم أعرف ماذا تعنى كلمة « فاضلة » ومع الوقت عرفت . زوجتى لا تغضبنى أبداً .

خمس سنوات معها ، وأعترف حبيبتى أننى لم أذق ذلك الطعم من القبلات الذى عرفته معك . هى تقترب منى بشوق زائد ، ربما لأنها لا تفعل شيئاً سوى انتظارى . أنا بروحى المريضة أقترب . يتلاقى جسدانا فى لحظات محمومة أغيب فيها عن صورتها .. أغيب عن الإحساس . ثم هدوء مفاجىء يحدث ، أشعل معه سيجارة لا تريدها رئتاى أما هى فتسرع لإعداد الماء الساخن والعشاء للإله المنهوك .

كم هو مجهد معها حبيبتى . بعد كل مرة أشعر بجوع وعطش وإزهاق ، واختناق أيضاً . أشعر أننى أفقد أشياءاً من نفسى . ألهذا تتعبنى ؟! .

معك حبيبتى .. أتذكرين ، كان الأمر مختلفاً . كنت أشعر بأشياء تضاف إلى نفسى بل كنت أستعيد نفسى . وكان هذا كافياً لأن تشملنى حيوية العالم . هل تعرفين أننى لم أبك أمامها طوال الخمس سنوات . أمامها أتكلم أغضب . أخلع ملابسى ، رأت جسمى عارياً لكنها لم تر دموعى . وهل يبكى الإله أمام مَنْ هم أقل على عرش الوجود ؟ .

منذ تلك الليلة البعيدة ودموعى لاتنطلق إلا لديك .

ماذا عن الحب ؟ أعرف أنك ستسألين . هى تتفنن فى وسائل راحتى .. لم أحبها .. بل تعودت عليها وأعيش معها . كل منا يعتمد على الآخر بشكل مختلف . أما أنت .. فكنت الحب لى . فلا شىء دفعك لأن تعطينى مشاعرك إلا حبك ، ولهذا أصبحت أخاف من يوم لا تحبينى فيه ، فأردت امتلاكك . أحببتك .. نعم .. رغم أننى لم أقل لك كلمة الحب مرة واحدة . صورتك ترتعش بين يدى أو ربما أرتعش من مواجهة عينيك . كم أشتاق إلى عينيك العسليتين ، ترى هل تودان رؤيتى ؟

هل تعرفين حبيبتى أن عينيك هما مستقبلى ؟ أتذكر شكوتك من احمرارهما كل فترة وأخرى ، وكانت نظارتك تسبب لك الصداع وتكاد تسقط مع

العرق . وكنت عاجزاً عن مساعدتك . وحين طال ابتعادنا فكرت فى تخصص العيون لأريح عينيك ، ولأجعلك تبحثين عن عنوانى وان كان لشىء آخر غير اشتياقك .

حبيبتى هل تأتين ؟ ورغم شكواك المستمرة من عينيك إلا أننى كنت أرى فيهما كل تعبيرات الحياة . زوجتى لها عينان خضراوان ، لا تستعين بنظارة ولا تشكو من الاحمرار أو الصداع ، وأندهش لأنها تثير إعجاب الناس .. أما أنا فلا أميز من عينيها إلا دائرة ملونة تنتهى برموش طويلة منشاه ونظرة لا تتغير ، أعرف معناها حين يجمعنا فراش واحد .

حبيبتى .. هل أكتفى بهذا القدر من الاعترافات .. أما أستمر .. أرجوك ، اتركينى .

(تدخل زوجته بثوب طويل أحمر ، تتحرك أطرافه كلما تحركت .. تحيطه بذراعيها ، يشم رائحة عطرة مميزة . تسأله « هل ستقضى الليلة كلها بمفردك فى هذه الحجرة المغلقة » . يلتف إليها ولا يراها . يرد « سأكون معك بعد لحظات » . تترك على شعره قبلة .. تتركه) .

ألم أقل لك أن لزوجتى اسمك ، كم يعزينى وأنا أمارس معها تلك اللحظات المحمومة .. أحياناً أشتاق إليك ، فأنادى اسمك ويدهشنى مجيئها .

لماذا نسيت الليلة حبيبتى؟ رغم فترات ابتعادنا ، إلا أنك كنت تتصلين فى ليلة ميلادى . ويأتينى صوتك أول شىء فى الصباح « كل سنة وأنت أكثر صدقاً . أردت أن أكون أول مَنْ يتذكر هذا التاريخ » . الليلة تقترب على الانتهاء وأنت لم تتصل بعد . هل ضاع رقم تليفونى بين أوراقك الكثيرة ؟ .

الكل يلتف حول المائدة .. يقف هو فى المنتصف . يأتيه صوت زوجته « الشموع تنتظرك » . تظلم الحجرة ، تظلم الدنيا من حوله لكنه يتماسك ويسحب نفساً عميقاً يطفىء به الثلاثين رقيباً على حياته .. تمنى لو يحرقهم .

سمع تصفيقاً وضجة . أحسهما تحية من الضيوف لأنه أخيراً استعاد شجاعته وأحرق عمره .

رغم الكعب العالي ، إلا أنها ما زالت أقصر منه . لكنه لا يتحرك . لا ينحني ليأخذ قبلتها . وهل ينحني الإله ؟ كان عليها أن تشب على أطراف أصابعها المنتهية بأظافر طويلة تلمع بلون الفستان .

قالت : « كل سنة وأنت طيب يا حبيبي . ما هي أمنيتك الآن » .

سرى هدوء مفاجيء .. توقف صوت الأطباق وتوقفت بقايا الطعام في الأفواه .

لم ينطق .

قالت زوجته « اعذروه ياجماعة .. الليلة عيد ميلاده ومن حقه أن يشرد قليلاً » .

تنبه على صوتها وقد بدأ الضيوف في مواصلة الأكل والشرب والكلام .

تستطرد زوجتي قائلة « ألا تتمنى شهره أكثر العام القادم » . رد زميل لي « بالطبع طبيب ناجح مثلك لابد أن يسعى دائماً للشهرة » . تقترب مني تنظر إلىّ وتهمس « أتمنى أن يكون لي طفل العام القادم » .

قلت : « أمنيتي أن أسافر » .

تحولت نظرة زميلي من قطعة الحلوى المقدمة له إلىّ واندفع متسائلاً « هل هناك بعثة من الجامعة أم أنه مؤتمر طبي » . قلت وأنا أبتعد عن المائدة المزدحمة بالحلوي والتطفل : « لا شأن للعمل في هذا ، أريد فقط أن أستريح » .

ومن ركن منزو أخذت أرقب زوجتي وضيوفها وهم سعداء بليلة ميلادي .

لماذا نسيت حبيبتى ؟ أريدك .

الدموع داخلى تحاول الانطلاق ، لكن شرط حريتها مفقود .

انصرف الضيوف واستعاد البيت هدوء . ولم أستعد بعد هدوءى .

اقتربت منى زوجتى بالمعنى الوحيد الذى أميزه فى عينيها . وجاء ردى نظرة جعلتها تبتسم وتسرع إلى حجرة النوم .

آه يا حبيبتى . أول كذبه فى عامى الجديد ، تحدث بعد لحظات. لم أتعود أن تنسينى . كيف تنسى اللحظة الوحيدة الباقية بيننا .

خلعت زوجتى ثيابها ، واستلقت إلى جانبى . اقتربت بشوق زائد واقتربت بأثقال ثلاثين عاماً . تمد يدها إلى عطر بجانبها تخصه لهذه اللحظات . له رائحة قوية ، نفاذه ، لكنها ليست بالقوة الكافية لتزيل رائحة الكذب . تركت شعرها ينساب ، تقلبت على أحد جنبيها لتطفىء النور . دائماً أتساءل « لماذا يفضل الناس ممارسة هذه اللحظات فى الظلام . لماذا لا يريد أى الطرفين رؤية الآخر». تقترب أكثر .. المسافة بيننا تبدأ فى التلاشى . أغمض عينى وأرسل يداً مرتعشة تعرف طريقها فى الظلام . وقبل أن تلمس يدى إحدى بنود النور المقرر .. يدق جرس التليفون .. يدق بشكل غير معتاد ، رنات متتالية متعجلة . توقفت يدى .. فتحت عينى وقمت مسرعاً ألف جسمى بملاءة السرير . كان التليفون فى تلك الحجرة البعيدة التى شهدت اعترافى .

رفعت السماعة فإذا بصوت يقول « أعتذر عن التأخير .. لكننى أتصل من « لندن » . لم تكن هناك فرصة لأخبرك بسفرى للدراسة . حجزت المكالمة منذ ثلاث أيام لتأتى مبكراً فى الصباح لكن الخطوط سيئة جداً ، هل تسمعنى » .

قلت : أسمعك ، لم تتأخر بالعكس إنها لحظة مناسبة جداً . دائماً تحسنين الاختيار .

قالت : كل سنة وأنت أكثر صدقاً .. أردت أن يكون أول من يتذكر عيد ميلادك .

قلت : وحشتيني جداً .

قالت : مشتاقة إلى أخبارك .

سألتها : متى تعودين ؟

قالت : سأنتهي من دراسة الماجستير بعد عام ونصف .

وكيف حال عينيك ؟

ردت : لونهما أحمر أحياناً لكنهما دائماً مفتوحتان .

قلت : أشكرك لأنك تتذكرين دائماً .

قالت : لن أنسى شيئاً عنك .

سمع ضجة اختفى معها صوتها . ما زال معها على الهواء الفاصل بين « القاهرة » و « لندن » . لم يسمع زوجته وهى تناديه بدلال .

مرت لحظات ، يفيق بعدها على شيء ساخن يبلل وجهه . قام بهدوء متجهاً إلى حجرة النوم ، بعينين حمراوين فيهما نظرة مختلفة . رأى زوجته فى الفراش وفى عينيها انتظار مندهش . قال : اننى مرهق الليلة سأنام فى الحجرة الأخرى .

حاولت أن تقول شيئاً ، حاولت أن تفهم ولكنها لم تفعل . أعطته ظهرها مستسلمة لحكمة الإله غير المفهومة .

فى حجرة أخرى ، دخل شارداً وأشعل سيجارة .

أسند رأسه على المقعد المواجه للسماء ، وانطلقت من داخله ثلاث كلمات لا يسمعها سواه .

قبل أن يفتر الإحساس

شريط ممتد — كالنيل مرافق خطواتى — يؤنس الطريق إليه . ليست أول مرة نلتقي .. ليست أول مرة أرتعش وأنا أتذكر عينيه ، يمد يده مرحباً بكل ما يكونه وتنساب منه كلمة « أهلاً » تحتضن بلهفة — لا تفتر — مجيىء وكأننى الدنيا كلها جاءت .. وليست أول مرة أستعيد وأنا ذاهبة إليه بعضاً من الحب بيننا ، بعضاً من رحلاتنا داخل كل منا الآخر .. داخل الدنيا .. لكنها أول مرة ألقاه ، وأنا فى هذه الحالة . كثيراً ما لجأت إليه حينما أكتئب دون مبرر مفهوم ، حينما أقلق رغم إيحاء كل الأشياء بالأمان ، حينما أريد البكاء ولا تستجيب عينى ، اليوم ، أمر مختلف . لست مكتئبة .. لا أحس بالقلق ولا أريد البكاء . اليوم أعيش تلك الحالة التى تسبق اختصار كل فلسفة الحياة ، وتجاربها فى كلمة . نلتقى اليوم لنجدد يوم الزواج .

« الزواج » ، ما زالت الكلمة تدهشنى ويدهشنى أكثر موافقتى .

نعم . هو مختلف بالمعنى الذى أبحث عنه .. أحببته كما لم أحب من قبل . أرى فيه كل رجل عرفته وكل رجل أتمنى معرفته .. معه حدث التوازن المفقود مع الآخرين ، فتحرك كل منا بحرية فى دائرته الخاصة ، وبقيت الدائرتان دائماً فى حالة تماس .

نعم ... لا أريد غيره ، لكننى كنت مترددة .

قال لى : « لم أعد أحتمل ابتعادك كل ليلة . أحلم بمكان واحد يجمعنا ، أشتاق إلى كل الحياة معك ، ألا تشعرين بالرغبة نفسها » .

قلت : « أنت أول من جعلني أشعر بقسوة لحظة الوداع . أنت أول مَنْ أتلهف معه إلى الاكتمال .. لكنك تعرف كم تخيفني فكرة الارتباط » .

أبطىء من حركة خطواتى ، أريد استعادة كل الشريط قبل رؤيته .. قبل أن ألفظ نهائياً خوفى ، أحس أن التذكر يعطينى قوة تقاوم بقايا ترددى .

« أرجوك افهم ترددى . معك أعيش حلماً أخاف عليه . كل لقاء بيننا له رعشة حنين متجددة .. كل نظرة تحكى جزءاً من تاريخنا .. كل لمسة تثير إحساساً لا يتكرر .. هناك دائماً حرارة لا تفتر حين ترانى ودائماً إليك مشتاقة ... »

متسائلاً يقول : « كيف نخلق كل هذا الحب ولا نكمله بالزواج ... » سؤال منطقى . لكن إجابتى أكثر منطقية « لأن كل هذا الحب بيننا ، فإننى خائفة.إذا تزوجنا لن يبقى شىء مثير عنك أو عنى . سنألف كل ما بيننا ، لا أحتمل فكرة أن أراك رجلاً عادياً وأن تحسنى كأية امرأة . صدقنى ، أفضل الابتعاد ونحن فى قمة الحب على لحظة واحدة من الفتور » .

يسمعنى بكل كيانه ، تذهب عيناه إلى مكان بعيد ، يبحث عن منطق لاقناعى .. لا يطول بحثه وتعود إلى عيناه بالبريق والرد ، « أفهم ما تعنيه . لكنك تنسين شيئاً هاماً . تنسين أننا مختلفان عن كل تجارب الحب . منذ البداية ونحن استثناء فلماذا لا نكون فى الزواج أيضاً استثناءاً ؟ » .

أسأله : « وهل الأمور بهذه البساطة . لا بد من مسافة بيننا حتى لا ينهار حلمنا .. والزواج يذيب كل المسافات » .

بهدوء يرد « لا أنكر أن الأمر يحتاج مجهوداً منى ومنك . وهذا اختبار لحبنا » .

« اختبار للحب » .. تدهشنى الكلمة وتثير انفعالى : « ألا يكفى أن كل

حياتنا سلسلة من الاختبارات . أريد أن أعيش معك الحب ، لا أريد اختباره » .

يسكت لحظات .. عيناه ترسلان الكلام وأسمعه يقول دون أن يقول « وهل نستطيع مشاركة تفاصيل الحياة دون زواج .. أرجوك أعطنى فرصة لأزيل عنك الخوف . صدقينى ، أنا أيضاً لا أحتمل فتور الإحساس بيننا . لن ينهار حلمنا ولن يأتى آخر ما بيننا إلا ونحن فى قمة الحب . حبيبتى .. هذا وعد » ولأننى ضعيفة أمام كلمة « حبيبتى » فقد تركت له الأمر .

فى ذلك المكان المعتاد على رؤيتنا ، اتفقنا على اللقاء الليلة . خطواتى مازالت على الطريق .. أقترب من المكان وأقترب من نهاية الشريط .

لم نكن نعرف أن ترجمة الحب إلى زواج ، أمر يحتاج إلى فراغ من الوقت ، وامتلاء بالعملة تُدفع دون قيد أو شرط والأفضل دون سؤال أو اعتراض . قلنا لصاحب العمارة الجديدة : « لا نريد إلا شقة واحدة ، بإيجار معقول » رد بنفاذ صبر وهو يحرك مسبحته : « عندى تمليك فقط وأقل شقة بعشرين ألفاً » .

فى المكان الذى احتوى اقترابنا ، اتفقنا على الابتعاد عاماً لتدبير المبلغ . وافقت أنا على دعوة للعمل فى بلد شهيقة البترول ، وزفيرة الدولار . هو باع سيارته الصغيرة وأتفق على عمل إضافى فى المساء . كان يبدأ خطابه بشوق وحنين وينهيه بجدول حساب صغير ، يحدد مركزنا المالى ، ويحدد المسافة الباقية إلى الشقة ، وإلى اكتمال الحب . بحسبة بسيطة أدرك وجود ثغرة ، ورغم كراهيته للاتصال بالناس فقط من أجل ما يملكون ، إلا أنه تحمل ، واقترض .

وبعد أعوام قاسية .. مر عام الابتعاد .

تقابلنا .. المكان يسألنا عن الغياب .. فى العيون لهفة الاشتياق . وفى الجيوب العشرون ألفاً مكتملة .

قال لى : « أخيراً ، نملك مقابل الحياة معاً . أعرف كم تعبت العام الماضى ، لكن كل شىء يهون من أجل حبنا » .

قلت : « تعنى زواجنا » .

بلمسة رقيقة افتقدتها عاماً ، احتضن يدى وقال « ما زلت خائفة ؟ » .. لو تعرفين كم زاد حبى لك وأنت بعيدة تعملين من أجل مستقبلنا .. الآن أحبك إلى درجة تجعلنى أكثر حرصاً على ألا نشعر بلحظة فتور . هذا تأكيد لوعدى القديم . حبيبتى ، لاتقلقى». ولأننى ضعيفة أمام كلمة « حبيبتى » ؛ فقد تركت له الأمر .

انتهى الشريط بانتهاء خطواتى إليه . يجلس مواجهاً لصفحة المياه . بتلك الحرارة التى أخاف فتورها مد يده مرحباً .. بذلك الاشتياق الذى أخاف ضياعه ، أرسل نظرة تكفى لمقاومة كل الخوف .

سألنى : « هل قررت بعد . » .

سألته : « هل انتهيت من كل شىء » .

منفعلاً بفرحة قال : « اتفقت مع عربة لنقل الأثاث .. اتفقت مع العمال لإنهاء التشطيب . كل هذا فى تقديرى لن يستغرق أكثر من أسبوع . ما رأيك فى أن نتزوج فوراً بعد أسبوع » .

أتأمل حماسه .. ترى هل يستمر متحمساً بعد الزواج؟ أفقت من لحظة تأملى على إحساس مريح .. مميز لا أخطئه مهما كان عمق تأملى . لمسة يده يعرف متى يقترب بها . ترى هل تحتفظ لمساته بسحرها بعد الزواج ؟

قال : « أعرف فيم تشردين ، لكننا اتفقنا على التجربة . دعينى أسهل عليك الاختيار . ما رأيك فى يوم الأربعاء ، أعرف أنه يومك المفضل . كم يسعدنى أن نبدأ اكتمال الحب فى يوم تحبينه . ألن يخفف هذا من قلقك » .

قلت : أعذرنى .. فحبنا لا يحدث إلا نادراً .. أنت لا تحدث مرتين فى العمر .

« الأربعاء إذن .. أشكرك كثيراً ، إلى اللقاء حبيبتى » . هكذا تركنى . ما زلت ضعيفة أمام كلمة الحب منه ، لهذا وافقت .

منذ البداية اتفقنا على أمرين أساسيين . لكل منا حجرته الخاصة وأن يتم عمل المنزل شركة وبالتناوب . كنت أريد أن نقتسم الشقة كما نقتسم الحلم ، لكنه لم يرض إلا أن تكون باسمى . قال لى : « لقد تعبنا نحن الاثنان ، لكن لولا سفرك لما استطعنا الحصول على هذه الشقة . إنها لك .. هذا حقك . كما أننى أكره الامتلاك » .

العمارة جديدة ، مدخلها نظيف وهادىء ، تنتصب بأدوارها العشرين عملاقة بيضاء ، ومن بعيد تطل باستحياء على الأهرامات .

فرحة الصعود إلى مكان واحد أنستنا أن المصعد لم يعمل بعد وأن علينا الوصول إلى الدور الرابع عشر .

يمر الأسبوع الأول فأحب معه كل الأيام وليس فقط الأربعاء . التقاء الفجر بعينيه يقف متربصاً لأى خوف يحاول مهاجمتى .. لمساته الرقيقة تقيم جسدى ، تغنينى عن الأقراص المنومة ، تثير بسهولة رغبتى فى النوم .. تثير فى اللحظة نفسها رغبة السهر . لم أدر هل أنا معه فى غفوة أم يقظة . حالة من الوعى الشديد .. لكنه وعى مقبل على الحياة .. ولا يعرف التوتر . أول مرة فى عمرى أصل إلى هذا التوازن .. وأول مرة فى عمرى أمارس وعياً مركزاً ومسترخياً .

وتمر الأيام والشهور لتشعرنى بحماقتى . كيف ترددت كيف خفت من انهيار الحلم والآن فقط يكتمل .

الليلة .. توافق مرور عام على زواجنا . اتفقنا على احتفال صغير نؤكد به عدم انهيار الحلم .. نؤكد به الوفاء بالوعد .

شمعة وحيدة تضيء حجرة المعيشة المشتركة .. يمتد ضياؤها من ملامحه إلى عيني فتشع بريقاً يحن لاقترابه . نرقص معاً على أنغام آتية من بعيد ، لا نعرف من أين ، يكفينا أنها توافق اللحن داخلنا .

لا أصدق ما يحدث . كأنني معه لأول مرة . كأنني لم أقبله من قبل .. وكأنه يلمسني لأول مرة . كل ما بيننا ، كل شيء منه ومعه يتحسس طريق النشوة .. كأنها المرة الأولى .

حجرتي الخاصة صغيرة لكنها تتسع لدخوله معي .. فراشي الخاص ضيق لكنه يمتد مرحباً .. نسعد بالترحيب .

أصواتاً مرة أخرى نسمعها ، لا نعرف من أين . هذه المرة أكثر قرباً .. أكثر بعداً عن الأنغام ، ولا توافق اللحن داخلنا .. هل من أعلى .. من أسفل . من الجانبين . لا ندرى ولا نريد أن ندرى .

تزداد الأصوات علواً وخشونة ، تزداد اصراراً على تحدى ليلتنا ، وعلى إيقاف النشوة الآتية .. نقبل التحدى ولا نعيرها اهتماماً . يخفى رأسه داخلى حتى لا يسمع وأخفى رأسى داخله حتى لا أسمع . وكلما ازداد الصوت ، زدنا التصاقاً فلم نعد نميز بين حدود جسدينا .. ونستمر فى الارتواء كأنه أول ارتواء .

ثم بصوت هائل يدوى فى المكان يصبح بعده العملاق الأبيض المنتصب فى الفراغ ، لايشغل حيزه فى الفراغ . حطام وتراب وأنقاض عشرين دور أصابها الدوار من الارتفاع ، فعادت إلى الجذور الآمنة .

وبين الأنقاض جسدان فى حالة احتضان ، يصران على تكملة الاحتفال .

وفى اللحظة الأخيرة نظر إليها مبتسماً وقال :

« أرأيت حبيبتى كيف صدقت فى وعدى » .

ولأنها ضعيفة أمام كلمة حبيبتى ، ردت بابتسامة مطمئنة :

« زال خوفى تماماً » .

الليلة تزوجت أختى

أشعر أننى لست أنا فى هذا الثوب الطويل المخصص للسهرات . أكثر من مرة أوشكت على التحرر منه ؛ وقبل أن أفعل ؛ تستعيد كلمات أختى فى الهاتف منطقها ، تسبقنى وتبقيه بإحكام على جسدى فاقد الهوية : « ألا يكفى أنك لا تضعين ماكياج ولا تذهبين لتصفيف شعرك ، تريدين أيضاً الظهور بثوب عادى فى مثل هذه السهرة ؟!

أقود سيارتى الصغيرة متجهة إلى « أوبرج الأهرام » حيث مكان الحفلة . الطريق من بيتى فى « الجيزة » إلى « الأوبرج » ليس طويلاً . لكن تدفق الخواطر فى نفسى وتداخل مشاعرى ، جعلانى أشعر أن المسافة ليست بالقرب المعهود .

لم أذهب أبداً إلى « الأوبرج » ، ومع ذلك تربطنى به علاقة بدأت منذ طفولتى . ذات يوم ، كنت أتفرج على بعض الصور المذهبة لأمى . أوقفتنى صورة أخذت فى « الأوبرج » ، وتحتها كُتب التاريخ بلون أسود فى عجلة من أمره . تظهر أمى فى الصورة وسط مجموعة من الناس ؛ حزينة وشاردة ، أثارت الصورة فضولى ، أخذتها ضمن محتوياتى وسألت أمى عن سبب الحزن والشرود . قالت وفى عينيها احتضان مرحب بفضولى : « فى تلك الليلة كنت مدعوة إلى حفل فى « الأوبرج » ضمن مجموعة كبيرة من زملائى وزميلاتى الأطباء والطبيبات . ذهبت إلى الحفل وأنا أشعر بانقباض لا أعرف له مبرراً . ولم يمض وقت طويل حتى جاءنى تليفون يخبرنى بأن أبى فى حالة تعب شديد .

كانت عادتى أن أترك العنوان ورقم التليفون كلما خرجت . تركت الحفل مرتبكة ، حتى أننى نسيت الشال الصوف الذى كان معى . أسرعت إلى البيت فإذا به قد فارق الحياة » .

منذ ذلك التاريخ البعيد وأنا أتساءل هل يشعر الإنسان مسبقاً بموت مَنْ يحب . منذ ذلك التاريخ البعيد ، وأنا أحمل « للأوبرج » هذا التساؤل الذى لم يرد عليه حتى الآن ، أحمل له حذراً من الإجابة . الليلة ، ترى هل يرد ، وكيف ؟ .

بعد لحظات سأشهد زفاف أختى . وعيت فى الدنيا على قول يصفها بأنها ليست شقيقتى ، يقولون « أختك فقط من الأب » . وكم حارنى لوقت طويل الفرق . بعد لحظات ستتزوج أختى الوحيدة . لاأكاد أصدق الأمر .. لاأكاد أستوعب مرور الزمن . حقاً ، كبرت أختى . شىء جميل أن تكبر أختى وأنا لا . أوقفتنى المقارنة . إذا كانت حقاً كبرت فلا بد أن أكون قد كبرت مثلها . لا ، ليس مثلها . هى تصغرنى بعام .

أنا وأختى ، لم نعش أبداً معاً . كانت مع أمها والأب المشترك وكنت مع أمى . كنا نلتقى فى طفولتنا بين الحين والآخر . كان الصمت بيننا أكثر من الكلام . وتمر السنوات ، تكبر هى وأنا أكبر . ونكتشف أشياء تكبر بيننا . أصبحت صديقتى الحميمة الوحيدة ، وأصبحتُ فى حياتها لحظة صدق نادرة .

لم نكن نتوقع تشابهنا إلى هذه الدرجة . فنحن نفلسف الحياة بشكل متقارب .. أحلامنا أكبر من قدرتنا على الحركة . اكتشفنا أن لحظات المعاناة تفوق لحظات الفرح ، نعشق الحرية والقراءة والسفر ، وبداخلنا حنين لم يرتو لأصدقاء يدعوننا إلى جلسة مرح . واكتشفنا أن « الأب » كان ــ كما يقولون ــ مشتركاً . ورثنا كرماً مبالغاً فيه .. ورثنا شكل انسياب العين .. ورثنا لقب العائلة النازحة من الريف .. ورثنا حباً ممتداً لفعل الخير .. وورثنا

عدم التلاؤم مع موج البحر . تقاربت أنا وأختى إلى درجة شعرت معها أنها ـــ بتشابهها معى ، واختلافها عنى ـــ تعكس الجزء الآخر من نفسى ، أو الوجه الآخر لملامحى . حتى صوتها يشبه صوتى . والليلة ، تتزوج . الليلة يتزوج الجزء الآخر منى .

ولأننى أحبها ، سألتها كثيراً إن كان تحبه إلى درجة الاشتياق للزواج . لأننى أحبها ، أحببت ـــ لأول مرة ـــ فكرة الارتباط . ولأننى أحبها ، وافقت على الدعوة ، رغم أننى أعتذر عن حفلات أقرب الأصدقاء . ولأنها الجزء الآخر من نفسى ، أتحمل الثوب الذى يفقدنى شعورى بنفسى .

دخلت بسيارتى إلى « الأوبرج » . عدد كبير من السيارات يقف عند المدخل .. عدد كبير من الناس ينتظر . نزلت من السيارة . لمحت شجرة وحيدة . اتجهت إليها .. أسندت ظهرى أرقب ما يحدث وأنتظر مجىء أختى . أنظر إلى الوجوه ، فلا أشعر بالراحة أو الألفة . البعض يحاول تخمين مَنْ أكون ، البعض يحاول تقدير تكلفة الثوب الطويل . كم أكره الانتظار خاصة إذا شاركنى فيه آخرون . قالت لى أختى : « لن تكتمل فرحتى إلا بمجيئك » . أخذت أستعيد هذه الجملة كلما هاجمنى الملل . لقد جئت يا أختى ، أما أنت .. توقفت خواطرى على ضجة مفاجئة تقترب من المكان . وبعد لحظات تدخل أربع سيارات مزخرفة بورق ملون ومغطاه بالورود ، يسبقها زغاريد وتصفيق على إيقاع لحن يذكر العروس والعريس . أدهشتنى نفسى وهى تحاول التركيز فى التقاط طقوس أول زفة أراها فى حياتى .

أختى فى فستان أبيض طويل .. تضع طرحة بيضاء ممتدة من الرأس إلى الأرض .. شعرها منساب على كتفيها .. الفستان يلمع .. الطرحة تلمع ، عقد حول الرقبة يلمع .. الماكياج يلمع .. شعرها يلمع .. وكنت أبحث عن لمعان عينيها الخضراويين . هو ، بجانبها فى بدلة سوداء تلمع .. شعره المصفف بعناية

يلمع .. يبدو أنيقاً .. يبدو عريساً .. يسيران ببطء على دقات الدفوف .. وعلى إيقاع أغنيات الفرح ، يوزعان الابتسامات والنظرات . وفى المقدمة ثلاث فتيات صغيرات يحملن شموعاً بيضاء طويلة . ومن الوراء والجانبين نساء ينثرن أشياء صغيرة تلمع فى الهواء ، وتلمس رأس العروسة والعريس ثم تهوى على الأرض مستسلمة لضغط الأحذية اللامعة .

وفجأة ، يظهر شاب لا أدرى من أين ، صوته مرتفع ، فى يده كاميرا ويخترق الناس بعنف دون اعتذار . يبدأ فى التقاط صورة مع كل خطوة فى الزفة . استغرقت هذه الأمور كثيراً من الوقت . بعدها وجدت نفسى جالسة داخل قاعة السهرة . موائد كثيرة تم حجزها لأكثر من احتفال زفاف . أمامى مائدة طويلة مغطاة بمفرش أحمر مزخرف ببعض البقع بنية اللون والمتناثرة دون تنصيق . وفى لحظات امتلأت المقاعد الخالية المجاورة بعائلة أبى التى لا أعرفها . كما امتلأت المقاعد البعيدة بعائلات أخرى جاءت تعلن أنها الليلة فى حالة فرح .

بدأ الفضول فى العيون ، وبدأت الثرثرة العائلية . اقتربت منى سيدة ذات وجه بشوش . سألتنى : « أنت فلانه ، أخت العروس الكبرى ، أليس كذلك ؟ » قلت : « نعم » قالت : « أنا عمتك الكبرى المقيمة فى الاسكندرية ، كنت طفلة صغيرة حينما رأيتك آخر مرة » . فرحت ، ليس لأنها عمتى ولكن لأن ملامحى ما زالت فى ذاكرتها . تبادلنا قبلة حملت إلىّ رائحة البحر . ثم أشارت إلى فتاة تجلس على مقربة من العروس قائلة : « ابنتى الصغرى وهذا زوجها الذى يشعل لها السيجارة » . تساءلت « هل تزوجت ؟ » قلت : « لا » وبدا التساؤل غريباً .

تولت عمتى مهمة التعارف بينى وبين أفراد العائلة . لم يظهروا جميعاً الدرجة نفسها من الترحيب . لكنهم جميعاً بلا استثناء أظهروا الدرجة نفسها من الاندهاش « كيف وأنا أكبر من العروس لم أتزوج حتى الآن » . جميعاً بلا

استثناء أنهوا حديثهم معى بكلمة « عقبالك » التى وصلتنى ممتزجة بالأسى والشفقة ، أكثر من امتزاجها بالمعنى البسيط للتمنى .

حتى الآن ، لم أكلم أختى . قمت من مكانى وذهبت إليها . لم يكن الأمر سهلاً . كان علىّ أن أخترق تداخل الناس وكلماتهم المهنئة . رأتنى أختى ، فمدت يدها تساعدنى على الاقتراب . مددت يدى وتلامست اليدان ، يدها اليسرى تلمع بالخاتم الذهبى ويدى اليسرى الخالية . قلت وأنا أقبلها « مبروك ، تبدين رائعة الليلة » . قبلتنى . نظرت إلى الثوب الطويل وقالت : « أشكرك على المجىء » .

ولأنها الجزء الآخر من نفسى ، لم تقل لى « عقبالك » . قدمت التهنئة للعريس الذى رد التهنئة بيديه أكثر منه بعينيه .

عدت إلى مكانى شاعرة ببعض الراحة . يفتح العريس علبة قطيفة حمراء ويخرج منها سلسلة تلمع . يصفق الجميع ويسألونه رفعها لأعلى ليروها بوضوح . يفعل مبتسماً ثم يلفها حول اليد اليسرى لأختى .. يحكم اغلاقها . وفجأة ، يظهر الشاب ذو الكاميرا والصوت المرتفع من مكان مجهول .. يهرول إلى مائدة العروس والعريس ويطلب منهما قبلة . تتعالى أصوات الضيوف ، وتصفيق طويل يصر على رؤية أول لحظة حب خاصة . يقترب العريس من أختى ، تقترب أختى من العريس ، يسرى هدوء مفاجىء ولحظة تلامس الشفتين يلتقط الشاب الصورة ثم يعود المكان إلى صخبه .

أما أنا فقد أوقفت لحظة تلامس الشفتين فى مقارنة مع لقطة أخرى يرجع تاريخها إلى ما يقرب العام . كنت فى زيارة لأبى ذات مساء . سمعت أصوات مرتفعة آتية من حجرة أختى . دخلت الحجرة ، فإذا بأبى وأختى فى مناقشة محتدة أقرب إلى الشجار . يقول لها : « رغماً عنك ستتزوجيه . أصغر منك بكثير تزوجن ولديهن أطفال . ماذا تنتظرين . وهو عريس لا ينقصه شىء ،

يكفى أنه ابن عمتك » . ترد أختى بعصبية وغضب : « لن أتزوج بهذا الشكل وهو بالذات لن أتزوجه ولو كان آخر رجل فى الدنيا » . حاولت التدخل لتهدئة الأمر وقبل اكتمال محاولتى ، فوجئت بصفعة مدوية تهوى على وجه أختى . تجمدت لما رأيته . أذهلتنى بصمات أبى الغليظة على بشرتها البيضاء . نظرت إلى أمها التى ردت قبل أن أسألها : « ابنته وهو حرفيها » . أنظر إلى أبى فيقول لى « لقد تأثرت بأفكارك ، هل تظنين كل البنات مثلك ، أنت السبب » . مرة أخرى ، أتجمد فى مكانى ويصيبنى ذهول . أنظر إلى أختى ، تبعد عينيها الخضراويين الممتلئين بالدموع والذعر وتجرى إلى الشرفة مهددة بإلقاء نفسها .. يجرى وراءها ابترك بصمات على الخد الآخر . تجرى أمها خائفة من احتمال فقدان ابنتها .. وأجرى أنا هاربة إلى بيت أمى وما زلت بعد فى حالة ذهول . لحظتها أحببت أمى أكثر . لولا أنها تركت هذا الرجل وأخذتنى إليها ، لكنت الآن مع أب يعطى نفسه الحق فى أن يصفعنى لأن لى رأى وليس لى زوج .

وأذكر بعد عدة أشهر ، أن جاءتنى أختى تقول : « حين عرفته أكثر أحببته ، تصورى بابا الآن لا يوافق على الزواج منه ويتشاجر معى كل يوم حتى أتركه . لكننى أكدت له أننى لن أتزوج غيره : فقال أنه لن يحضر الزفاف . هل تتصورى ما يحدث الآن وهو الذى ضربنى يوماً لأتزوجه »

الآن ، أثبت لقطة القبلة ولقطة الصفعة وأفكر .. كم تختلفان وكم تتشابهان .

بدأ برنامج السهرة المصاحب للعشاء .

رجل تجاوز من العمر الكثير ، يدور بين الموائد ، يضع الأطباق وأصناف الطعام . ولا ينظر إلينا . فقرات متتالية من استعراضات الرقص — المتنوعة الملابس والأداء والألحان ، المتنوعة فى درجة الضوضاء — تحاول انتزاع التصفيق وابتسامات الاستحسان . شىء مشترك لفت انتباهى ، جسم المرأة

الراقصة شبه العارى . أتأمل الوجوه حولى . الرجال ينظرون بنهم ، بشهوة وترتفع أصواتهم كلما تحرك الجسد بشكل أكثر إثارة . النساء ينظرن بأحاسيس يختلط فيها الأسى ، بالانزعاج ، الاستمتاع بالحقد . أحس بالتعب .. وأحس باختناق .

لم تكن العشر دقائق المعادة كاستراحة ، كافية للراحة ، إذ ما لبث أن أعلن عن الرقص الشرقى . وتلقى الضيوف الإعلان بالصفير والتصفيق .

ورقصت الراقصة .

انني عاشقة للرقص . وأمارسه كثيراً . وكثيراً ماحلمت بأنى راقصة ، وكثيراً ما كتبت عن عشقى للرقص وعن احترامى للجسد حين يتوحد مع عزف الأوتار . ومع ذلك فإننى لم أستمتع كهؤلاء الناس بما تفعله الراقصة . لم تحركنى لحظة حركتها . لم أر رقصاً بل استعراضاً للعرى المهتز . وأنا الرقص عندى فلسفة توحد العقل والجسد فى لحظة . الرقص عندى مثل الجنس ، من الأشياء النادرة التى تعيد توحد الإنسان .

ما زالت الراقصة تهتز ببدلة الرقص اللامعة والمتغيرة مع كل فقرة. تنتقل بين الموائد مبتسمة وتتسع ابتسامتها بضيق المسافة بينها وبين موائد الفرح . اقتربت من أختى وعريسها ، وقفت بينهما وهنا يظهر الشاب ذو الكاميرا ويلتقط صورة . ثم تدعوهما للنهوض وتزفهما حول القاعة المستديرة . تفعل هذا مع كل عروس وعريس وكأن الأمر جزء من تعاقد العمل . ولا أعرف سبب التصفيق الطويل حينما تتوسط الراقصة مائدة الفرح وتشير بأخذ صورة . ومع كل زفة ، بدت كل عروس مشابهة للأخرى وبدا كل عريس مشابه للآخر . هى تتبطأ ذراعه فى زهو وتتداول فى الخطوات المعدودة استعراض فستان الفرح والأشياء اللامعة التى قدمها العريس ، وتبتسم للراقصة أكثر من ابتسامها للعريس . هو ، يسير مختالاً وكأنه يعرض ما يمتلك ويحاول بنظراته اقناع الضيوف أن عروسته أجمل عروس ، وما يلمع فى يديها أغلى ما يلمع فى

القاعة . اختلفت أختى وعريسها فى شيء واحد . ابتسمت أختى لعريسها أكثر من ابتسامها للراقصة وهو كان العريس الوحيد المختال فى بدلة سوداء .

بعد لحظات ، طلبت الراقصة من الضيوف التصفيق مع الإيقاع . وفى الحال صفقوا جميعاً ، إلا أنا . نظرت الراقصة إلىّ مندهشة بل مستنكرة جرأتى على رفض طلبها .

وكانت الخاتمة لحناً من ألحان « فريد » . تنهدت ارتياحاً بعد أن تملكنى الإرهاق الشديد . فقد كان الشيء الوحيد الذى سمح لى بلحظة استمتاع تذكرنى بعشقى القديم لموسيقى « فريد » .

بعد انتهاء برنامج الرقص والعشاء ، وقف الجميع وساروا وراء العروس والعريس يتبادلون الضحك والكلمات القصيرة . سبقتهم بصعوبة لأسلم على أختى قبل أن تتوه فى الزحام . كنت أعرف أنها ستقضى الليلة فى إحدى الفنادق ثم تسافر فى رحلة شهر العسل ، قبلتها مرة أخرى فى لحظة احتضان سريعة .. قلت لها : « اتصلى فور عودتك » . ترد : « بالتأكيد وسنعرف مَنْ فينا التى ستغير رأيها » . ضحكنا . ضحك العريس وإن لم يعرف لماذا نضحك .

انتزعت لنفسى ثغرة بين الناس ولم أصدق تواجدى المفاجيء فى الهواء . جريت إلى سيارتى الصغيرة بشوق زائد ، دخلتها .. أحكمت إغلاق الباب .. فتحت النافذة الصغيرة الجانبية من الناحية اليمنى .. أدرت المحرك .. أدرت موسيقى هادئة . سارت العربة الصغيرة ، تقطع الطريق فى هدوء منساب مع الأنغام ومع نسيم الليل الداخل باستحياء .

ومثلما كان الذهاب ممتلئاً بالأحاسيس ، كان أيضاً الإياب . أشياء متداخلة أحسها وفى اللحظة نفسها أحس بنقيضها . راحة ممتزجة بتعب ، رضاء يشوبه رغبة تمرد .. استرخاء يرقد بين توتر ، تركيز الفكر الشارد فى التنوع .. هدوء

حساس يؤرجحه قلق ، وضوح الرؤية المغلف بضباب ، والتأكد السابح فى
م اليقين . لكننى فى الحقيقة كنت مستمتعة مع كل هذه الأمور والسبب ،
لأننى أعشق احتواء المتناقضات فى اللحظة نفسها ، ولكن لأننى بعد
ظات قصيرة ، سأفعل الشيء الذى طال الليلة اشتياقى إليه .. بعد لحظات
صيرة سأخلع الثوب الطويل المخصص للسهرات ، سأستعيد شعورى بنفسى .

أشــرف

أول مرة أمارس هذه التجربة الجديدة فى الكتابة .

وأنا مع الكتابة أندفع — بلا تردد — إلى الجديد والمخاطرة والعنيد .

كثيراً ما كتبت عن إحساسى بالعشق . بل أننى لا أستطيع الاستمرار فى شيء دون عشق ولا تتحمل أوراقى وجودها دون احتوائها لسطور عاشقة .

هذه المرة — فى كل شيء — مختلفة . فى الدافع ، فى أسلوب التعبير .. فى مكانه .. فى التوقيت . حتى العنوان . فأن أكتب عن إنسان ويكون اسمه العنوان ، أمر لم أتخيله حتى لحظة الكتابة هذه .

منذ معرفته . وهو يفجر داخلى ابداعات من الرعشة والنظرة والكلمة . منذ معرفته ، والعشق ينتقل من عينيه إلى يدى إلى الورقة .

هذه المرة .. أيضاً هو وراء القلم . لكننى هذه المرة أود السطور هادية نسبية وليست فقط نتاجاً من عشق عينيه .

هذه المرة أصعب . أشعر بظل من التحدى مختبئ بين السطور . فأنا لا أريد كتابة خواطر حرة ، بل قصة لها حد أدنى من الكيان المعترف به للقصص القصيرة .

هل أستطيع ؟ وهل هذا ممكن ؟

وإن كان ممكناً ، ترى هل تمكنت من الكتابة والفن إلى هذه الدرجة ؟ لا أعرف . أعرف فقط أننى تمكنت من العشق أو تمكن العشق منى إلى أقصى

درجة . ترى هل يكمل العشق نقص الفن ؟ لا أعرف وإن كنت بكل العشق داخلى سأحاول .

لكن لم تنشغلين يا نفسى إن لم تلق سطورك اعترافاً ؟ هل يهمك كثيراً لو اعتبرها القراء والنقاد مجرد هدية عشق أو تجربة شديدة الذاتية لا تنتمى إلى عالم القصة أو ربما إلى عالم الفن ؟ هل حقاً يهمك الأمر ؟ .

أتذكر حين فكرت أول مرة فى نشر كتاباتى ، قول أحد الكتاب الكبار : « كتاباتك لا تصلح ، تفتقد شكلاً فنياً محدداً ومعترفاً به . اذهبى واقرأى أولاً عن أشكال الكتابة المعروفة .. ضعى سطورك فيها وبعد ذلك فكرى فى النشر » .

لم أعمل بالنصيحة . فقط استمر قلمى فى الكتابة . وأذكر بعد نشر عدة قصص ، الكاتب الكبير نفسه يقول : « أرأيت كيف كانت نصيحتى مجدية » .

لست منشغلة البال ، ولست قلقة . ولن أهتم حتى لو رفضوا نشر هذه السطور تحت اسم قصة . لكننى فى الوقت ذاته ، يدفعنى التحدى إلى خلق قصة تنال التقدير . مصرة جداً على هذا . وسبب الإصرار لا يرتبط فقط بقدرتى الفنية بل بقدرتك أنت أيضاً . فأنا لا أتصور شيئاً عنك ومنك وإليك لا يعترف به العالم . أنا اعترفت بك . فهل العالم أفضل منى ؟! .

أعرف منذ الليلة الأولى ، أنك فى حياتى حياة أخرى لها قوانين عشق خاصة بها .

منذ الليلة الأولى تخلق فى كيانى تفاعلات غير مألوفة من الفرح والحزن ، لم تدرسها كيمياء العشق بعد .. لم آلفها بعد .

منذ الليلة الأولى ، وأنت من الكأس نفسه ، تسقينى برشفة واحدة مزيجاً

مدهشاً .. محيراً من المتعة والعذاب .. من الظمأ والارتواء .

منذ الليلة الأولى أعدت داخلى تشكيل خصائص العقل والجنون .. الحلم والحقيقة .. الموت والوجود .. وبدلت قناعاتى المستقرة طويلاً — عن معنى العشق ومعنى الخلود .

كيف إذن أتوقع عند كتابة قصة تحمل اسمك ، أن تخضع للأشكال الفنية التقليدية أو حتى الجديدة .. محلية أو عالمية ، فى كتابة القصة القصيرة ؟!

هذا ضد العدل .. ضد المنطق .. والأهم أنه ضد الممكن .

قصة تحمل اسمك ، لا بد أن تضرب بعرض الحائط كل ما هو معترف به فى تقييم الفن والأدب . تماماً كما ضربت أنت بعرض الحائط كل ما هو معترف به فى دنيا العشق والنشوة .

قصة تحمل اسمك ، لا بد أن تفتح آفاقاً جديدة لم تكتب من قبل فى دنيا الكتابة . تماماً كما كنت أنت أفقاً جديداً فى خصائص الرجال .

أتساءل هل بدأت القصة ؟ أتعودين بنفسى للانشغال ؟ لا — لست منشغلة البال . فقط حريصة على الدخول سريعاً فى التجربة الجديدة .

أشرف .. نحن فى شهر نوفمبر .

رأيتك أول مرة فى « نوفمبر » . ومنذ ذلك اللقاء و « نوفمبر » فى حياتى عشق آخر غير عشقى لعينيك .

أشرف .. الليلة الأحد .

أول ليلة حب بيننا كانت الأحد .. ومنذ ذلك التاريخ والأحد موعد النشوة الأسبوعى .

أشرف .. الساعة تدق العاشرة .

أول لقاء بيننا كان فى العاشرة مساء .. ومنذ تلك الساعة ، والعاشرة موعدنا عبر الهاتف .. عبر الناس وعبر الهواء ..

أشرف .. المكان فندق « شبرد » .

رأيتك أول مرة هنا فى « شبرد » ومنذ ذلك الحين و« شبرد » صديق ثالث دائماً إليه كلما اشتقنا إلى ذكرى بيننا .

أشرف ..

المكان — دون سؤال — يسألنى لماذا طوال جلستى التى قاربت الثلاث ساعات ، ما زلت أطلب فنجاناً واحداً من القهوة . يسألنى هل هناك أمل فى الأفق أن أطلب فنجانين الساعة العاشرة مساء ليلة أحد ؟

أشرف ..

الناس حولى وجانبى يأكلون ، يشربون ، يثرثرون ، يتهامسون ، يضحكون ، يبدون وكأن كل شىء على مايرام . كيف ؟ وأنت فى المكان غير موجود .

رغم الدهشة . تذكرت أن أشياء كثيرة ضرورية لم تعد موجودة ، ولا أحد يبدو عليه الاهتمام أو حتى الإحساس بغيابها . لست أدرى هل هذا فقدان وعى .. فقدان ذاكرة .. فقدان معنى أو فقدان هوية .

أشرف ..

هل ستتقبل هديتى ؟ أعرف كم أنت صعب الارضاء .

وماذا سيكون شعورك وأنت تلتقط رسالتى من صندوق البريد ، ثم وأنت تقرأها ؟

أمهلنى لحظة من فضلك ، فقد اقترب الجرسون يسألنى : « هل تريدين

شيئاً آخر ؟ » أقول شكراً موجهة نظرتى إلى عينيه المبتسمتين .

أشرف ..

قد تسألنى .. بالتأكيد ستسألنى لماذا أكتب قصة تحمل اسمك ؟ ولماذا أريد اهداءها إليك ...؟ ما المناسبة ؟

هل تذكر أغنيه «ستيفى واندر» «تكلمت فقط لأقول أحبك» والتى شهدت أول رقصة بيننا ؟

أنا .. أكتب فقط لأردد اسمك ..

أكتب قصة تحمل اسمك لأخلد ما بيننا .. لأخلدك . لأتيح للدنيا بعدنا تراثاً من العشق تتبادله الأجيال .. قد تتعلم الحكمة من المفارقات التى جمعتنا .. أمتعتنا وعذبتنا . كم من حكايات العشق ، انتهت بانتهاء أصحابها . أنا لست بهذه القناعة .. لست بهذه الأنانية .

أكتب قصة تحمل اسمك ، لأننى أعرف أننى لن أحمل منك . فلتكن قصتى ثمرة العشق .. طفلك منى . لتكن « أشرف الصغير » . لن أخفيه فى أحشائى . لن أخبئه فى أدراجى ، بل للشمس أرفعه وعلى الملأ أعلن أمومتى دون الزواج منك .

ماذا عنك يا ترى ؟ ماذا ستفعل بابنك المفروض عليك ؟

أكتب قصة تحمل اسمك ، لأن حبك داخلى خرج عن كل قدرات سيطرتى . أهديتك أحلامى ، لم يجد الأمر وظل العشق أكبر . أهديتك وسائل السعادة التى أعرفها والتى لا أعرفها ، لم يجد الأمر وظل العشق أكبر . أهديتك نفسى دون قيد ودون شرط ، لم يجد الأمر وظل العشق أكبر . مهما أفعل ومهما أعشق لا يجدى الأمر ويظل العشق أكبر .

أكتب قصة تحمل اسمك ، لعل الأمر — هذه المرة — يجدى ، ويحدث

التكافؤ مع أننى لا أريده . أريد الميل لكفة العشق وإن أرهقنى ، غياب العدل .

أكتب قصة تحمل اسمك ، لأننى لا أعرف مثل الكتابة عنك ، طريقة سهلة المنال لاحضارك حيناً تكون صعب المنال .

أنت دائماً هناك .. أنا دائماً هنا .

دائماً مستقرة كالزرع .. دائماً — كالزئبق — تفر .

أكتب هذه القصة ، لأهزم فترات البعد عنك والاحتياج إليك والحرمان منك .

أكتبها لأكون معك رغماً عن كل الظروف الطارئة وغير الطارئة .. رغم المزاج المتقلب .. رغم صعوبة التنقل .. رغم العمر القصير .. رغم دهشة الأهل .. رغم تطفل الأصدقاء .. رغم عملك المستقطب أجمل ساعات النهار ورغم الفجر المصر دوماً على سرعة المجىء ، متجاهلاً إيقاع نشوتنا المتمهل .

أكتب قصة تحمل اسمك ، لأننى أؤمن أن قادة الثورات وزعماء السياسة وأصحاب الفنون والرسل ليسوا هم فقط الجديرين بدخول التاريخ . العشاق أيضاً . فالعشق ثورة . قد تكون سلمية وقد تكون دموية .. لكنه — بلاشك — ثورة تقلب — دون توقع ، دون فرصة للتأهب — نظام العاشق والمعشوق وتعيد ترتيب الكون .

أكتب قصة تحمل اسمك ، فى محاولة لإقناعك أن داخلى عشقاً غزيراً لك . فأنت تعرف أننى لا أكتب إلا إذا لمست الأشياء النخاع ، وامتزجت بالدم ونبضة القلب . قد تصدق بعد هذه السطور . أتذكر حوارنا المتكرر . أنت بإصرار تقول : « لا أصدق كل هذا العشق منك ، مَنْ أكون لأستحق كل ما تفعلينه لى » .. لست إلا رجلاً عادياً ، بل أقل من العادى . ماذا بى يجعلك على

هذا العشق الغريب .. كما يخيفنى عطاؤك . بالتأكيد تبالغين .. وستثبت لك الأيام صدق كلامى » .

قد تكون على حق . أنا نفسى أندهش أحياناً من عشقى . لكننى سعيدة به كما هو ، بكل غرابته وغموضه . أنت فى الدنيا استثناء ، ولا يمكن أن يأتى العشق لك إلا استثناءاً .

كما أنك تأسرنى بتواضعك وقناعتك وإصرارك على كونك عادياً ، أو أقل من العادى ، الرجال الآخرون لا شىء بل ومنفرون ، ورغم ذلك لا يكفون عن ذكر تميزهم ، والمعجزات التى يدعونها .

تذكرنى بـ « سقراط » حينما سألوه عن سر حكمته . فقال انه يعترف بحدود علمه وراضى بقدراته الضئيلة مقارنة بقدرات الكون . وذلك عكس الناس الذين لا يعلمون شيئاً ومع ذلك دائمى الحديث عن علمهم .
أشرف .. أحببتك لأنك « سقراط » آخر على الأرض .

كما أننى بسبب نرجسيتى الشديدة ، لا يمكن أن أتصورك عادياً . أتصور أن مجرد عشقى لك ينقلك فوراً من طائفة البشر العادية إلى الطائفة الاستثنائية . لذلك أطمئن . ولا تحاول بأى طريقة الشك فى قدر نفسك فعشقى لك قد تكفل بهذا الأمر .

أكتب قصة تحمل اسمك ، لأدرب نفسى على الشجاعة .

قلت لنفسى إذا جهرت بالعشق واسم مَنْ أعشق ، فبالتأكيد أكون قد اختصرت خطوات كثيرة من الشجاعة أحتاجها بشدة . خاصة فى هذا الزمن الجبان ذو الوجوه المتنوعة معلنة وخفية .

وأكتب قصة تحمل اسمك لافاجئك وأدهشك . فأنت لا تتخيل أننى سأكتبها .

أكتبها لأفاجئك وأدهشك فى عالم لم يعد يدهشنا إلا فى الكوارث والجرائم ضد الإنسان :

أكتب قصة تحمل اسمك ، لأننى أحب اسمك وأحب ما فعله فى حياتى . أنت « أشرف » وكنت أول مَنْ «أشرف» ببراعة على إدارة نبضات قلبى وعقلى . فهل كثير على هذا الاسم أن أجعله قصة ؟ .

أكتب قصة تحمل اسمك ، لأعجل بالشفاء من عشقى لك .

لا تندهش ، سأوضح لك الأمر .

هل تذكر نقاشنا عن المذهب الأخلاقى الذى اعتنقه « راسبوتين » ؟ والذى يدعو إلى الانغماس فى الخطيئة حتى يتسنى التطهر الأمثل ، والوصول الأكمل إلى الفضيلة . إذ كيف يندم الإنسان على ذنب ويتوب عنه ، إلا إذا شرب حتى النخاع حلاوته ومرارته ؟

أكتب قصة تحمل اسمك ، لأشرب حتى النخاع حلاوتك ومرارتك .

لأفرغ ما عندى من العشق . وسيراً على منطق « راسبوتين » ، أنال الخلاص .

وأرجوك لا تسىء فهمى . عشقى لك ليس خطيئة أو ذنباً أريد التطهر منه ، أو قيداً أنشد منه التحرر . أريد فقط أن أعيش بشكل طبيعى ، أحس وأعشق بشكل طبيعى . لكن وحتى هذه اللحظة ، كل شىء عنك ومنك — بشكل غير طبيعى — يتملكنى .

وأكتب قصة تحمل اسمك . لأتفوق على كل امرأة فكرت أو ستفكر فى عطائك هدية .

قد تتلقى ساعة ذهبية ، خاتماً فضياً .. جهاز تسجيل لسيارتك . كرافتات حرير التى تحبها . زجاجات عطر ثمين . أحدث شرائط الموسيقى وغيرها ..

لا بأس . لكنها لن تنال الخلود كهديتي .

وأكتب قصة تحمل اسمك . لأثبت لك أن القلم الحبر الأسود الذى أهديتنى إياه ، هو بالضبط النوع الذى أحبه . أحياناً يساورك الشك أنك لم تحسن الاختيار وأنه لا يرضينى كالقلم القديم الذى فقدته . اطمئن ، فهو بين أصابعى منذ الكلمة الأولى . ما أجمل أن أكتب بهديتك إلىّ هديتى إليك .

أشرف ..

أستطيع الاتيان — بلا توقف — بمزيد من دوافع رغبتى فى كتابة قصة تحمل اسمك . لكننى لا أريد الاطالة عليك . قل لى هل تكفى الدوافع السابقة ، مناسبة هديتى . وإن كانت كافية هل تقنعك ؟ أعرف كم أنت صعب الاقناع . على كل الأحوال ، سأكتفى بهذا القدر إلى حين هدية أخرى .

يرن التليفون . على غير توقع .. أجرى إليه على غير وعى لماذا أجرى . أضع السماعة بتنهيده قائلة « النمرة خطأ » . واندهشت نفسي للتنهيدة .

أخذت أبحث عن عنوانك . وقت ليس بالقصير فات وأنا مازلت أبحث عن عنوانك . بعض الاضطراب يحاول إيقافى ويسألنى : « ما مصير هديتى إن لم أجد عنوانك ؟ » .

لك عنوان لا أفقده ، على ملامحى .. تحت بشرتى وداخل دمى . ولكن مصلحة البريد لا تعترف به .

فى كل الأماكن .. بين جميع الأوراق .. مازلت أبحث .

يأتى منتصف الليل وأنا بعد تائهة ، لا أعرف كيف الوصول إليك .. انظر إلى السطور فى صمت متداخل المعانى . أعرف ان بإمكانى مكالمتك وأخذ العنوان .. بإمكانى أخذه من أحد أصدقائك وبإمكانى الذهاب إلى بيتك وتركه بنفسى فى صندوق البريد . لكننى لا أريد أياً من هذه الوسائل . لماذا الإصرار

على إرسال هديتى بشكل محدد ؟ لا أعرف بالتحديد .

يرن التليفون مرة أخرى ، أجرى إليه .

صوت مألوف يأتينى من أفق بعيد : « تندهشين لسماع صوتى ، أليس كذلك ؟ شهور مضى ولم أتصل منذ آخر لقاء . أنت أيضاً كنت عنيدة ولم تفكرى فى معاودة الاتصال .. وهذا جرحنى .. لا ، ليس مهماً الآن ، كيف الأحوال » ؟

أرد : « أشرف ؟! » .

يقول : « أعرف مدى دهشتك من اختفائى المفاجىء ثم عودتى المفاجئة .. لكنك تعشقين المفاجآت أليس كذلك ؟ أم تغيرت ؟ » .

أرد : « أشرف ؟!! » .

قال : « أعرف أننى مخطىء .. أعرف أننى تسرعت فى آخر لقاء .. أعرف أننى تأخرت لإدراك بعض الأشياء .. أعرف أننى أبدو متناقضاً . أعرف أننى تصرفت وكأن ما بيننا رواية نشاهدها من مقاعد المتفرجين . أو أنا بالتحديد تفرجت عليها واقفاً من مكان بعيد . وكأن الأمر لم يكلفنى إلا ثمن تذكرة الوقوف وبعض التصفيق » .

أرد : « أشرف ؟!!! » .

يقول : « نعم أشرف .. أشرف أحمد .. » .

أقاطعه : « أشرف ؟!!! » .

يواصل : « على كل حال ، أتصل الليلة ليس للحديث عن الماضى ويبدو أنك فى حالة أفقدتك حتى التعرف على صوتى .. » .

مرة أخرى أقاطعه : « أشرف ؟!!!! » .

قال : « تكلمت فقط لأدعوك إلى حفل زواجى الأحد القادم . العروس فتاة لا تعرفينها وإن جاءت سيرتها مرة أو مرتين بيننا . هل تأتين ؟ كم يسعدنى حضورك . والمكان فندق شبرد ، قاعة الحفلات .. هل تأتين ؟ » .

ما زالت الكلمة على شفتى : « أشرف !!! » .

قال : « أعرف أنك متقلبة المزاج . قد تقرأين إنك آتية . وفجأة فى لحظة يتغير مزاجك . ولهذا خذى عنوانى فى حالة الاعتذار . لكننى أرجوك الحضور مهما كانت ظروفك » .

وأخذ يمليني عنوان بيته التائه طول المساء عن بيتى . بعد المكالمة ، اندهشت لوجود عنوانه بخطى على الظرف المزخرف الذى أعددته لاحتواء هديتى . وضعت الهدية .. ومعها كارت يحمل تهنئته بالزواج وكلمة اعتذار . الصقت طابع البريد نزلت إلى الشارع وألقيت بالظرف فى صندوق البريد القريب من بيتى .

عدت .

سريعاً احتوانى الفراش الدافىء . تواجهنى نسختى من الهدية بجانبها القلم الحبر الاسود .

أغمضت عينى فى شرود يلمس أكثر من احساس . وبذاكرة تستعيد أكثر من موقف . أريد مجىء الفجر سريعاً وفى اللحظة ذاتها أريد إطالة الليل .

لم أعرف كل ما يدور داخلى . لكن شيئاً واحداً كان بإمكانى تمييزه . كنت سعيدة . فلأول مرة اختار التوقيت المناسب . لأول مرة لا يهزمنى القدر بمفاجآته . ولأول مرة أمارس موقفاً طال شكى أننى قادرة عليه .

تزوجت .. حسناً . لكن أنا التى تحمل منك « أشرف الصغير » . دون احتياجها للزواج بك .

غد .. لم يحدث بالأمس

واكتشفت ـــ فجأة ـــ أننى لست حرة .

وما أصعبه من اكتشاف .

بعد عمر طويل أكتب عن حريتى ، أتفاخر بها وأريدها عنواناً لكتابى الأول ، أجدنى ـــ دون توقع ـــ أدرك الوهم الأكبر .. أدرك الزيف الحقيقى .

لست حرة . ولم أكن فى يوم من الأيام .

القلم بين أصابعى يقاوم إعلان الاكتشاف . مرة يتعثر .. مرة يتجمد مرة يوقف تدفق الحبر ومرة ـــ من بين يدى ـــ يفر .

لا ألومه . كيف بعد أن صاحبنى فى كل كلمة عن حريتى ، أدفعه ـــ دون تمهيد ـــ إلى النقيض .

نفسى أيضاً تقاومنى . ترجونى اخفاء الأمر عملاً بالقول « إذا بليتم فاستتروا »

نعم ـــ فالمعرفة أحياناً بلاء .. لكننى لن أسترها .

إن لم أكن حرة ، فلأكن ـــ على الأقل ـــ شجاعة . لا أستطيع تحمل بلائين كلاهما أشق من الآخر .

« حريتى » .. ألهذا الحد كنت ساذجة .. حمقاء ؟

ظننت « حريتى » ، العمل بمكافأة شهرية دون اعتبار لأية ميزات تنتج عن التعيين .

أنا مُعينة إذن أنا مقيدة هكذا فكرت .

ظننت « حريتى » الرضاء بمقابل مادى ضئيل يجعلنى أعانى طوال الشهر من أزمات مالية وأتحمله لأنه يتيح وقتاً كافياً للكتابة .

ظننتها عدم وجود دفتر حضور وانصراف يراقب ويدون معدل حركة جسمى بمبنى العمل .

وظننتها لعب التنس والسباحة وحمامات السونا فى الأوقات التى أحددها . مع الصحبة التى أختارها .

أسرتى لا تسأل عن تفاصيل علاقاتى وتفاصيل أحلامى ، فكيف لا أكون حرة ؟

وأمتلك شقة وسيارة وأسهر حتى الفجر فى حفلات الديسكو فكيف لا أكون حرة ؟

وظننتها امتلاك وقتى وكلمتى ، والسفر كل عام .

وظننتها فيلم نادى الجزيرة مساء كل ثلاثاء .

قلت : « حريتى » هى اجتماعات تحرير المرأة .

هى وحدتى تساعدنى على التأمل وقراءتى اليومية فى سكون الليل .

كيف لا أكون حرة وأنا لا أعترف بأدوات الزينة والماكياج ؟

كيف لا أكون حرة ، وبانتظام تأتينى دعوات مؤتمرات دولية عن كيف تكون المرأة حرة ؟

والمكالمة التليفونية الطويلة دون أن يسألنى أحد التوقف ..

ورحلاتى مع الأصدقاء فى الخلاء ، أليست حرية ؟

لم أرتبط برجل .. أو عرف أو مجلة أو جريدة .. ولست منتمية لحزب . أليس هذا جوهر الحرية . هكذا كان إيمانى .

كانت « حريتي » كل ما أكون .. كانت المرادف لإسمى .

هكذا ظننت .

واقتنعت بهذا الظن وامتلأت غروراً به ، إلى حد لا يقبل الشك أو حتى محاولة الجدل . حرة أنا ولا يمكن أن أكون إلا هكذا . نعم أنا حرة .. انتهى الأمر .

حتى جاءت ليلة الأمس ، التاسع عشر من ديسمبر ١٩٨٥ .

لن أنسى ليلة تحررى من وهم أننى حرة . لن أنسى لحظات تغيرت فيها معالم الدنيا وتبدلت معانى الأشياء . لن أنسى تغير ما حاولت طوال العمر ألا أنساه .

والمكان ، بيتى .. لا ، أقصد بيت الأسرة .

فى إحدى الحجرات ، اجتمعنا : أمى ، وأبى ، أنا ، والضيف : الإنسان الذى أحب .

سبب الاجتماع مناقشة قرارى للسفر معه .

والسفر ليس للسياحة ، ليس لتغيير الجو .. ليس لقضاء شهر عسل .. ليس لمؤتمر .. وليس هروباً من الواقع .

السفر ،

لأن مَن أحب ، يجرى فى جهازه العصبى شيء مجهول يهدده بعدم القدرة على الحركة فى المستقبل .

السفر ،

لأن مَن أحب ، تعب من عدم يقين الأطباء . تعب من تناقض نتائج الفحوص والاشعات . أتعبه الشيء المجهول الذى بدأ — بجرأة — يعلن عن قدرته الفائقة فى التدمير . ينتقل من مكان لآخر دون استئذان ، دون

مقدمات . وكأن الجسد جسده ، يعربد فيه كما يشاء ، بالسرعة التى يهواها .

السفر ،

لأن تقرير الطبيب الأخير يشابه فى التقارير السابقة وينصح بالسفر السريع إلى الخارج ، بالتحديد إلى « لندن » ، للتشخيص الدقيق وبحث امكانيات العلاج .

السفر ،

لأن مَن أحب ، لم يسافر أبداً إلى الخارج وقد وعدته منذ معرفتنا وقبل معرفة مسألة المرض أننى سأكون معه فى أول مرة يستخدم فيها جواز السفر . وأنا لا أستطيع عدم الوفاء بوعد له .

السفر ،

لأننا اجتمعنا فى الدنيا بعد فوات الكثير من العمر ، ولست مستعدة للتنازل عن تجربة نادرة كهذه .

السفر ،

لأننى سأكره نفسى إذا بقيت هنا تأكل .. تشرب .. تمارس الرياضة والكتابة وتذهب للتنزه .. بينما هو غريب فى مدينة باردة ، بمفرده لا يعرف هل يقاوم البرد أم الغربة أم الإجراءات الطبية المنتظرة وصول جسده . وأنا لا أريد كره نفسى . لأريد كره الشىء الذى أحبه .

السفر ،

لأنه هو بكل حلاوته ومرارته وغرابة مرضه نادر الحدوث ، يهبنى أجمل ما فى الكونْ من إحساس يمكن أن تتمناه أمرأة .. يمكن أن أتمناه أنا بالذات .

هو ليس فقط مَنْ أحب . بل الحب الذى يقولون عنه مستحيل التكرار .

السفر ،

لأننى منه وهو منى ، وأنا لم آلف انفصالى عن أجزائى .

السفر ،

لأنه — كعشقى لعينيه ،كشروق الشمس كل يوم ، كالموت — أمر طبيعى الحدوث .. ضرورى الحدوث ..

بدأ الحديث بسؤال أمى مَنْ أحب : « ما رأيك فى سفرها معك ، بصراحة ؟ » .

يرد قائلاً : « بالتأكيد شىء يسعدنى ويطمئننى . لكننى لم أطلبه منها ولن أفعل هذا » .

يسأله أبى : « ألست معى أن سفرها معك سيعطلها عن عملها وعن دراستها ؟ » .

يرد مَنْ أحب : « لا يمكن أن أوافق على شىء يعطلها أو يضرها » .

تسألنى أمى : « ما رأيك ؟ » .

أرد : « لا تسألينى رأيى . لن أشترك فى هذا الحوار . إشتراكى يعنى موافقتى عليه . لقد قررت السفر وانتهى الأمر » .

بغضب ترد أمى : « ماذا تعنى أنك قررت السفر وانتهى الأمر ، هل نسيت أننا أهلك ومن حقنا مناقشتك » .

أقول : « هذه ليست مناقشة . بل محاولة لمنعى من السفر . وأنا لن أسمح لأحد أن .. » .

يتدخل مَنْ أحب قائلاً : « لا داعى للحدة . نحن نتحاور . وإنى لعلى يقين أننا سنصل إلى قرار يرضى كل الأطراف » .

تستطرد أمى : « هل رأيت أسرة تضمن لابنتها حرية كما نفعل . لا أعتقد أن هناك فى هذا المجتمع فتاة تتمتع بحرية مثلها .. ولا حتى شاب » .

برقته المعتادة ينظر إلى ويقول : « وأنا معك تماماً . وكم أقدر هذا الاختلاف ويسعدنى كثيراً وجودى فى هذه الأسرة » .

تكمل أمى : « لكن لكل شىء حدود معقولة . ونحن لا نتدخل فى حياتها إلا إذا أحسسنا بضرورة قصوى للتدخل من أجل مصلحتها . نحن لانوافق على سفرها معك ؛ لأننا لا نرى ضرورة لهذا الأمر . أنت مسافر للعلاج وقد تضطر للإقامة فى المستشفى لإجراء الفحوص اللازمة وفى هذه الحالة لن يكون لوجودها فائدة كبيرة » .

يضيف أبى : « لو كان هناك ضرورة لوجودها . لكنا أول مَنْ يشجعها على السفر معك . نحن لسنا ضد الحب ، ولسنا ضد الإنسانية . نحن فقط نحاول التفكير معك بشكل منطقى » .

أقول : « سفرى ضرورة لا ترونها . لا ترون الا تعطلى عن عملى ودراستى . لا ترون إلا إرهاق السفر ومرافقتى لمريض قد يحتجزوه عنى . أشياء غير واردة فى تفكيرى بل وأعجز عن فهمها » .

ترد أمى : « نحن نجتمع الليلة بالتحديد لنجعل هذه الأشياء واردة فى تفكيرك » .

تنظر إلى مَنْ أحب وتكمل : « نحن نعتبرك فرداً من الأسرة . ولهذا دعوناك إلى هذه الجلسة لنتصارح . ونحن نثق فى فهمك وتقديرك » .

يرد : « وأنا سعيد جداً بهذه الدعوة . جعلتنى أشعر أننى فى أسرة تحترم كيانى وتقدر شعورى وتريد إشراكى فى الرأى . ومهما كانت النتيجة تأكدى أننى سأفهم وسأقدر » .

وتكمل أمى : « تأكد أننا سنساعدك بأقصى ما نستطيع . نحن نعرف الكثير من الأصدقاء فى « لندن » ونعرف أيضاً بعض الأطباء .. سنعطيك

بماءهم جميعاً . ولا داعى للقلق فالمدينة منظمة جداً ولن تجد مشكلة فى التنقل أو الاتصال بالمستشفى » ..

أقاطعها : « ما هذا ؟ تتكلمين كأن الأمر حُسم بعدم سفرى .. لا أوافق على تحويل مجرى الأمور بهذه البساطة . مرة أخرى أقول أننى قررت السفر ولن يؤثر شيء على قرارى » .

يرتفع صوت أمى : « لن تسافرى » .

يرتفع صوتى : « سأسافر » .

تقول : « أهذا تقديرك للمسئولية ؟ .. أهذا فهمك للحرية ؟ » .

أهمس داخلى : « هذا فهمى للحب » .

لحظات صمت لا تستمر طويلاً .. ثمّ أحب ينقل نظرته من الأرض إلى سقف الحجرة . يبادر بقطع الصمت : « فى الحقيقة أنا محرج جداً . لا أريد أن أكون السبب فى حدوث أى سوء فهم أو شجار بينكم » .

ينظر إلىّ قائلاً : « لقد اقتنعت بوجهة نظر الأسرة ، فعلاً قد تتحملين الكثير للسفر معى ، ثم تفاجأين أننى مضطر للتردد على المستشفى أغلب الوقت ولا تنسى أن هناك احتمال كبير لإجراء عملية جراحية كما هو واضح من تقرير الطبيب . أى أننى سأقيم فى المستشفى بصفة كاملة حيث سأجد كل العناية اللازمة . وفى هذه الأحوال ، لن يكون لوجودك الضرورة التى ترينها وبالنسبة إلى مسألة اللغة ، فلقد عرفت أن هناك مترجمين فى المستشفى ، فلا داعى للقلق » .

كل ما يقوله لا يزيد إلا قلقى وإصرارى .

أعقب قائلة : « كل المشكلة أن تفكيرى فى ضرورة سفرى يختلف عن تفكيركم . لقد قررت السفر بناءاً على مقاييسى فى الحكم على الأشياء وسأتحمل

كل النتائج . هذا حقى . ولن أتنازل عنه » .

تسألنى أمى : « مازلت مصرة على الخطأ ؟ » .

أرد : « عدم اتفاقنا لا يعنى بالضرورة أن موقفى خطأ » .

توشك أمى على الرد ، لكن أبى يسبقها : « هل حدث مرة أننا وقفنا ضد رغبتك ؟ على العكس ، نشجعك دائماً على كل شىء يدفعك إلى التطور والسعادة . ونحن نقف جانبك ضد أشياء كثيرة فى هذا المجتمع . لكن موقفك هذا بعيد عن تعقلك الذى عهدناه فيك » .

تكمل أمى : « ليس عيباً أن يفكر الإنسان أحياناً دون تعقل ، لكن العيب ألا يستمع إلى آراء أهله الذين لا يريدون إلا صالحه » .

لا أدرى ما الذى حدث . عهدت نفسى دائماً قادرة على الاقتناع . قادرة على الاستماع بجدية إلى آراء تخالفنى . الليلة .. فقدت كل القدرات .. فقدت القدرة على التغير والصبر . لم يبق داخلى إلا قدرة واحدة .. قدرة الاصرار على السفر ، دون أى استعداد لأى شىء آخر .

أرد : « هذا كلام فات أوانه . لقد قررت السفر وهيأت نفسى لهذا القرار . لا فائدة من مواصلة الحوار » .

بعصبية تقول أمى : « لن تسافرى يعنى لن تسافرى » .

بهدوء أرد : « سأسافر يعنى سأسافر » .

مَنْ أحب ينظر إلى كأنه يرانى لأول مرة ويسمع صوتى لأول مرة . أحب نظرته المكتشفة .

تقول أمى وقد هدأت عصبيتها : « ومن أين لك بثمن التذكرة وتكاليف الإقامة . لا تتوقعى مساعدتنا » ؟.

أقول : « لن أطلب شيئاً منكما . سأدبر كل المبلغ دون سؤال أحد » .

يسألنى أبى : « هل ستسحبين من ودائعك فى البنك ؟ » .

دون تفكير أجيب : « نعم » .

لكننى فوراً تذكرت أن أمى هى التى حولت لى هذه الودائع من حسابها الخاص .

يرد أبى : « لقد حولنا لك هذه الودائع ووضعناها بإسمك لتكون ضماناً لك فى المستقبل ومصدراً ثابتاً للدخل كل شهر يشعرك بالأمان . فنحن لن نعيش لك طول العمر . ومرتبك من العمل لا يكفى ، ولا تنسين أنك بعد شهور قليلة ستتسلمين شقتك وسيكون عليك تجهيزها . فهل تسحبين ضمان المستقبل من أجل سفر غير ضرورى ؟ » .

فى هذه اللحظة ، أدركت شيئاً ما كان يجب غيابه عن بالى . أدركت أن قرار السفر لا يتوقف على مجرد الرغبة والإصرار . شعرت بسذاجة دولة تتلقى معونة مشروطة وتتوهم أنها تملك قراراً حراً . كيف لم أفكر فى هذا الأمر من قبل .

ولكن كيف كان لى أن أفكر وكل شىء فى حياتى مدفوع من أسرتى . لم أقابل أبدًا مشاكل مالية ولم يخطر ببالى أننى يمكن أن أواجهها . من الأساسيات وحتى الكماليات ، أسرتى تتكفل به . حتى رصيد البنك لم أساهم فيه إلا بوضع اسمى .

هذه أول مرة أقابل مشكلة مالية .. هذه أول مرة أقف ضد أسرتى .

بسرعة لم أتوقعها قلت : « لن أمس الودائع . سأقترض المبلغ اللازم وسأسدده من مرتبى الضئيل . هذا ما كنت سأفعله لو أننى أعيش فى بيت مستقل ولا أملك إلا عملى » .

ولا أدرى لماذا جريت وتركت لهم الحجرة .

من الحجرة المجاورة ، سمعت مَنْ أحب يقول : « سأحاول إقناعها بكل جهدى . لا داعى للقلق . لن آخذها معى .. هذا وعد » .

جاءنى فى حجرتى .. اقترب منى .. أخرج منديله يجفف دموعى . أنظر إليه وأنا غير قادرة على النظر إليه .

وقلت بصوت تحجبه الدموع : « اغفر لى أرجوك . لا أستطيع مواجهتك بعد أن كُشف أمرى » .

يرد وهو يجفف دموعى : « لا أفهم كلامك ، اغفر لك ماذا ؟ » .

أرد : « اغفر لى عبوديتى التى فُضحت الليلة . أشعر بالخجل والعار . لا يستحق حبك إلا امرأة حرة .. وأنا .. أرجوك ، اغفر لى » .

يأخذ يدى بين يديه ويقول : « لا تستحقين الليلة حبى ، كيف ؟ والليلة زاد حبى . رأيتك من أجلى تتحدين أسرتك التى أعرف جيداً كم تقدريها وتحبيها . رأيت شيئاً داخلك ، لم ألمسه من قبل .. رأيت شيئاً بيننا لم أره من قبل » .

أنتقى قليلاً من دموعى .. أتذكر شيئاً وأقول : « أعرف صديقة غنية جداً تستطيع إقراضى . بل ستكون سعيدة وهى تساعدنى فى هذا الموقف . ليس هناك مشكلة . لن يقف المال حائلاً .. لن تسافر دونى .. لن أدعك تسافر دونى » .

يرد : « كيف تتخيلين أنى أرضى عن هذا التصرف . كيف أشجعك على شىء ينال من كرامتك . كيف أسبب لك التورط فى الديون .. وقبل كل هذا ، كيف أشجعك على الوقوف ضد أسرتك . أهذه هى فكرتك عنى ؟ لن تأتى إلا بموافقة الأسرة » ..

أحتضن يده قائلة : « أرجوك افهمنى .. أريد أن أكون معك » .

لا أتصورك فى هذه التجربة وحدك .. لا بد أن نكون معاً . منذ أول لقاء ونحن نعيش معاً كل التجارب .. لا أتصور أن تركب الطائرة أول مرة دونى .. لا أتصور دخولك عالم مختلف دونى .. لا أتصور انتظارك رأى الطبيب دونى . لا تندهش ، احتياجى للتواجد معاً أكثر من احتياجك » .

يفاجئنى ببعض الدموع فى عينيه ويرد : « لم أعرف أحداً فى حياتى أحبنى مثلك . يكفينى حبك .. يكفينى موقفك الليلة . لا يمكن أن أطلب شيئاً أكثر من هذا » .

أسأله : « ماذا تعنى يكفينى موقفى الليلة ؟.. هل أفهم من كلامك أنك لا توافق على مجيئى ؟ » .

يرد : « أرجوك . لا تأتين بالشكل الذى تفكرين فيه . أرجوك ، من أجلى لا تأتين معى . إذا صممت وسافرت معى ، سيحدث شرخ بينى وبين أسرتك . لن أستطيع دخول هذا البيت مرة أخرى . ومهما أكدت لهم أننى لم أوافق ، رغماً عنهم سيرون أننى السبب . أرجوك ، من أجلى لا تأتين . فأنا أخسر أى شيء فى الدنيا ولا أفقد حب واحترام أسرتك . أنت ابنتهم ورغم كل الظروف لن يكرهوك . أما أنا فسأتحول إلى شخص غير مرغوب فيه وغير أهل للثقة . هل ترضى لى هذا ؟ من أجلى .. أرجوك ، دعينى أسافر دونك » .

أتأمله وهو يرجونى بينما الدموع فى عينيه . تصرخ رغبة السفر تزاود إلحاحها . وتنفجر قدرات أخرى للحب . لكننى لا أستطيع أن أحبه أكثر . فمنذ تاريخ بعيد ولديه كل الحب الممكن واللاممكن . مأزق دائماً يدفعنى إليه ، دائماً لاأقدر على التخلص منه .

يسألنى : « هل أرحل وأنا مطمئن ؟ » .

أقول : « الدنيا كلها ما كانت تقدر على اقناعى . من أجلك أردت بشدة السفر معك . ومن أجلك ، لن أسافر معك . سعادتك وراحتك هما مقياسى فى الحركة » .

ينهض قائلاً : « أشكرك . وأتمنى أن أراك غداً فى حال أحسن . أتصبحين على خير » .

« بالتأكيد سأصبح على خير » أقول لنفسى بعد أن تركنى .

بعد تسعة وعشرين عاماً ، غداً فقط سأبدأ الخير الحقيقى . سأبدأ فى إنهاء الوهم وتبديد الأكذوبة الكبرى .

لن أسافر معه .. لكننى قررت رحلة أخرى غداً .

ظروف طارئة

لايزعجني شيء في حياتي ، أكثر من شعوري بأنني تحت الاختبار . تأملت مقاييس الفشل والنجاح ، فأدركت أن محاولة إختباري لابد وأن تنتهي بإدانتي .

لكن هناك بعداً آخر لانزعاجي . مَنْ يختبر يشعر بالتفوق . يشعر — ولو لحظات — أنه يمتلك سلطة وأنا ينفرني الامتلاك خاصة إذا ارتبط بالسلطة ، ويزداد نفوري إذا كنت المقصودة ، في محاولة إما لتقبلي أو رفضي .

وتدهشني نفسي في لحظات الاختبار . فأية فرصة تحاول — ولو مصادفة — تقييمي ، كفيلة بأن تحول أي تميز داخلي إلى شيء عادي وأحياناً إلى شيء أقل من العادي . حاولت تغيير نفسي ، لكنها لم تسمح إلا بأن يظل الأمر مجرد محاولة . استسلمت لها وتركتها حرة . خفت أن تملني وتتركني .

أتجول بنظراتي في حجرة الإنتظار حين يأتي الموعد . تفكيري شارد في أمر واحد « ترى ما رأى رئيس التحرير في كتاباتي » . وأخذت أستعيد علاقتي بنفسي . تلك العلاقة التي لا أتذكر بدايتها . كل ما أعرفه أنني أكتب منذ إدراكي أنني أشغل حيزاً في الفراغ ، منذ رغبتي ألا يظل فراغاً . أكتب منذ تساؤل عقلي في عالم يثرثر ولا يجيب .. أكتب منذ ارتعشت عواطفي بحثاً عن بعض الشمس .. منذ اكتشافي أنني امرأة في مجتمع يحركه الرجال . علاقتي بقلمي علاقة حميمة تتجاوز إحساسي بالراحة ، تتجاوز فرصة مصادقة اللغة وإظهار تجدد الأفكار . علاقتي بقلمي كعلاقتي بملامحي وأعضاء جسمي . علاقة نفسية وعضوية ، أحملها داخلي ، أتنفس بها ، أتحرك خلالها ، أحلم

معها ، أغضب من أجلها وأهدأ فيها .

« أنا أكتب إذن أنا موجودة » ، هذه فلسفة ... كيف إذن يختبر رئيس التحرير كتاباتى ؟ كيف يختبر وجودى .. ؟

أفقت من خواطرى على الفتاة المرسومة ... فائقة ، سكرتيرة رئيس التحرير ، تقول « موعدك بعد عشر دقائق ... رد بل عادت إلى مكتبها وهى تعدل من خصلات شعرها ... غريب من البشر ، ذلك الوسيط بين الرؤساء والناس . تختلف ... حسب درجات الرئاسة وتختلف الزمن ؛ لكن هذا النوع من البشر — ... يرد على التليفونات ويحدد المواعيد — لا يتغير . لم أعهد مرة طلبت ... أحد الرؤساء إلا ووجدت نفسى متهمة دون جريمة أتذكرها . ... تحقيق من جانب السكرتيرة . تحقق معى بالدقة نفسها التى زينت بها ... لحظتها أشعر أن هذا التزين المبالغ فيه ضرورى . فاتهام الناس دون مبرر ، ... اخفاء حقيقة ... ، تماماً كإخفاء حقيقة التهمة . وبعد التحقيق ، تنظر إلى من جميع ... .. ترسل صوتها من أعلى الأنف .. تشرد لحظة .. لحظات ... تقلب فى ... أمامها مزدحمة بالأسماء والمواعيد .. ترد على تليفون جانبى ... با من الساعى .. تتضاحك مع زميلتها .. تدعو أحد المنتظرين بدخول ... ما زلت أمامها أقف ساهمة بالحكم وما زالت هى ، لم تمن بعد بالتوضيح . ... أن أحظى بشرف أخذ الموعد عليها أن تتأكد من استلامى رسالتها « أنا ... مازلت منتظرة » . لكنها لا تعرف أننى فى اللحظة نفسها استلمت أخرى ... فرصتى الوحيدة لتعويض عدم إحساسى بذاتى » .. نوع غريب ومسكين . دائماً أحاول تجنبه ، كثيراً ما أتشاجر معه .

نظرت إلىّ الفتاة المرسومة بعناية فائقة وقد تعمدت تأخيرى لأستلم الرسالة ، لم تنهض واقفة كما فعلت مع الضيف الأخير ، يبدو أنه ذو سلطة ...

حر ، بل اكتفت أن تشير بالدخول .. دخلت ودعوت معى كل ثقتى بنفسى كل علاقتى بقلمى .

وجدت أمامى رجلاً يقترب بقوام رشيق من منتصف الثلاثينات ، ملامحه بة يرتدى بدلة رمادية ينسجم لونها مع لون الحجرة المكيفة ، ينسجم مع عينيه . مد يده مرحباً ومعها أرسل نظرة سريعة متفحصة قوامى الطويل داء الأسود . جلست أمامه وقد أعجبنى . فهو مختلف عن الشكل ليدى لرؤساء التحرير أو أى نوع من الرؤساء . سألته : « هل أعرف الآن ك فى كتاباتى ، منذ أسبوع وأنا أتلهف لمعرفة الرد » .

قال : « بالطبع ستعرفين رأيى .. هل تدخنين » .

قلت : « أحياناً لكننى لا أريد الآن ، شكراً » .

أخرج سيجارة من علبة ذهبية ينساب منها لحن مألوف . أخذ نفساً ميقاً ، اعتدل فى جلسته ثم قال : « قرأت سطورك وسعدت بها ، فهى جريئة متميزة . هل اطمأنيت الآن . هل زال توترك » .

قلت بابتسامة مندهشة : « وهل أبدو متوترة » .

يأخذ نفساً .. أقل عمقاً هذه المرة حيث انتقل العمق إلى نظرته وقال : على العكس ، تبدين متماسكة جداً . لكن نظرات عينيك .. قطرات العرق لى وجهك وانتظارك لرد وأنت تقرضين أظافرك ، تشى بما تحاولين اخفاءه . لكننى حقاً مندهش » ، قلت : « مندهش ؟ » نظرته تزداد عمقاً .. قال : ملامحك تعكس إنسانة خجولة وهادئة جداً .. ويسهل اقناعها . بينما تعكس سطورك إنسانة جريئة جداً .. متمردة ، بداخلها بركان دائم التأهب للانفجار » .

أنا الآن فى حالة دهشة شديدة . ليس لأنه محق فى ملاحظته ولكن لأنه لهتم . قلت وقد هدأ قليلاً توترى : « أنا لست خجولة ويسهل التأثير علىّ

كل ما فى الأمر أننى استجيب للأشياء بحساسية شديدة . وأعتقد أن جرأة العقل التى أكتب بها هى التى تسمح لملامحى أن تكون هادئة » سكت لحظة .. نظرته ثابتة فى عينىّ ، ينتظر انتهائى . أكمل « هذا تعليق سريع على ملاحظاتك . فالأمر يحتاج إلى تحديد معنى الجرأة والخجل والهدوء » .

بابتسامة رقيقة كشفت عن أسنان غير متسقة قال : واضح الآن ، أنه ليس من السهل اقناعك . « بحركة سريعة ــ كأنه تذكر شيئاً فجأة ــ ضغط على جرس جانبى وقال : « نسيت أن أسألك ماذا تشربين .. القهوة هنا ممتازة ، ما رأيك » . قلت : « فى الواقع أنا لا أريد أخذ الكثير من الوقت ، جئت فقط لأعرف هل هناك إمكانية لنشر كتاباتى أم ... » قاطعنى قائلاً : « ألا يمكن مناقشة هذا الأمر مع فنجان من القهوة » .

بعد طرقتين على الباب ، يدخل ساعى ذو بشرة سمراء أطلب منه قهوة مضبوط .

قال : « والآن نعود إلى سطورك ، هل تتعجلين الشهرة ككل جيل هذه الأيام ؟ » بهذا السؤال ، بدا كرؤساء التحرير ، أو كأى رئيس . وشردت فى خاطر متسائل ، ألم يتعجل هو الآخر . ليس من السهل أن يصل إلى هذا المنصب وهو شاب ، دون القليل من التعجل بل الكثير منه . سألنى : « لم ترد على سؤالى ، هل تتعجلين أن يعرفك الناس ؟ . قلت : « أتعجل معرفة نفسى » .

اندهاشه يسألنى : « ألا تعرفينها بعد ؟ » .

أرد : « ليس بعد . كل سطر أكتبه اكتشاف جديد لها . هذا بالطبع لا يعني أننى لا أرغب فى إرسال أفكارى إلى الآخرين » .

قال : « على أية حال ، لا أظن أن إنسانة لها موهبتك سوف تجد صعوبة فى النشر ، أنا أقول هذا الكلام عن خبرة وتجربة » .

آخذ رشفة من فنجان القهوة ، فعلاً ممتازة كما قال . أشعر الآن بزوال التوتر تماماً .

أسأله « هل هذا معناه أن أسطورى مكان لديكم فى لديكم فى المجلة » .

اعتدل فى جلسته .. قلب أوراق ثم قال : « ما رأيك أن نبدأ بنشر قصة (غرباء) » .

قلت : « بالطبع أوافق ، لكن اسمح لى أن أسألك عن سبب الاختيار .. مجرد فضول » . سكت لحظة ، فتح لعلبة الذهبية ذات اللحن المألوف .. أشعل سيجارة .. أخذ نفساً .. ما زال صامتاً وبعد لحظات قال : « من الناحية الفنية أرى أن كل القصص الأخرى تتمتع بالدرجة نفسها من الجودة . لكننى اخترت (غرباء) لسبب شخصى . أبدو غامضاً أليس كذلك » .

قلت : « نعم .. بعض الشىء » .

زاد عمق نظرته وقال : «هل تصدقيننى إذا اعترفت أن قصتك هذه تحكى حياتى منذ تزوجت وأصبحت أباً . لست متزوجة ، أليس كذلك » .

قلت : « لا » .

أكمل : ومع ذلك ، كشفت فى أربع صفحات حقيقة الزواج بعد فترة . أزلتِ عنه الوهم . فهو ليس إلا روتين يومى والتزامات لا تنتهى » .

سألته « وماذا عن الحب » . يأخذ نفساً سريعاً ويعود إلى الحوار .

« هذا بالتحديد ما أعجبنى فى القصة . إنها واقعية جداً ، فالحب القديم بين الزوجين لم يستطع الوقوف أمام ظروف الحياة . تتذكرين بالطبع الجملة التى بدأت بها القصة « غريبان فى مكان واحد ، يجمعهما فقط مواعيد الغذاء وأوقات رؤية الأبناء » ، لا تندهشِ إن لخصت هذه الكلمات علاقة زواجى » .

قلت : « هذا معناه أنك لست سعيداً فى حياتك » .

قال وهو يطفىء سيجارته : « لا يخدعك المظهر . فأنا ذو منصب هام هنا ، يأتينى دخل كبير من مصادر متعددة ، أعرف أغلب الشخصيات ذات النفوذ والشهرة ، تزوجت بعد حب وأصبح لى أسرة مكتملة . بعد فترة ليست طويلة ، فترت كل المشاعر ، لم يبق من الحب إلا التعود والواجب . أصبحت أقرب إلى الآلة . أشتاق من جديد لمعنى الحب واللهفة » .

لحظة صمت ثم يستطرد : « أننى بالطبع لا أقول هذا الكلام لأى إنسان . شىء ما بين سطورك دفعنى لمصارحتك .. شىء ما يطمئننى إنك ستقدرين صراحتى المفاجئة » . يعود الصمت بيننا .. يحرجنى بعض الشىء ، فالمقابلة التى بدأت اليوم ، لا تساعدنى على التعمق فى الموضوع .

قلت : « بالتأكيد ، تسعدنى ثقتك » .

قال : « أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك .. ولنعد الآن إلى قصتك ، أريدك أن تعيدى كتابتها بخط أوضح حتى أرسلها إلى المطبعة » .

أسير فى الطريق .. خطواتى على الأرض .. رأسى تلمس السماء .. تشملنى فرحة لها فرحتان . فرحة نشر سطورى وفرحة لمس أعماق إنسان وثق بى من الوهلة الأولى . هو ، فعلاً مختلف عن كل الرؤساء . كم احترمت هذه الشجاعة ، وتساءلت : لماذا لا يفعل الإنسان ما يريد فى اللحظة التى يريدها . لماذا لا نتصارح بسهولة دون عقد أو حواجز ، حين نشعر برغبة المصارحة . لاشك أنه شعر ببعض الراحة بعد حديثه معى .

أنا أيضاً شعرت بالسعادة والفخر . فقد كنت جديرة اليوم بثقة إنسان . واكتشفت أن حرفاً واحداً فقط يفصل بين كلمة « صراحة » وكلمة « راحة » .

تحققت من الرقم الذى أعطانى إياه وجاءنى صوته : « نعم ، وصلتنى القصة . الخط واضح جداً ، انتظريها الأسبوع القادم » .

مر أسبوع .. أسبوعان ولم تظهر بعد قصتى . قررت الذهاب إليه . شعرت بأننى قد خُدعت . لماذا شجعنى . لماذا طلب منى أن أعيد كتابتها . لماذا تحدث معى وقتاً طويلاً وطلب لى قهوة . لماذا وعدنى .

دخلت حجرته وأنا أحمل كل شعورى بالغضب والخديعة . استقبلنى بحرارة لم أكن أتوقعها ، وبابتسامة لم أفهمها . سألته « هل تغير رأيك فى كتاباتى ؟ لقد وعدتنى بنشرها منذ أسبوعين .. أم ضاعت بين الأوراق الكثيرة . أننى ... » قاطعنى : « أفهم انفعالك وتساؤلاتك . ولكن ألا تسألين عن حالى أولاً ... ؟

على كل حال ، اطمئنى ، القصة موجودة ولم يتغير رأيى . مجرد ظروف طارئة جعلتنا نعطى الأولوية لبعض الموضوعات . وهذا يحدث كثيراً فى عمل الصحافة . هل هدأت الآن » ؟ .

قلت : « نعم . لا أخفى عليك شعورى بأننى خُدعت . أرجو أن تفهم انفعالى فأنا لست معتادة على جو النشر وما يحدث فيه » .

يشعل سيجارة .. يترك مقعده ويجلس على المقعد المواجه لى .

قال : « قد تندهشين إذا قلت لك أننى أنا الذى يشعر بالخديعة ، نعم لقد خُدعت » .

خُدعت . كيف ؟ الاندهاش فى عينىّ يسأله قبل صوتى .

قال : « اعذرينى فأنا صريح . تصورت مثلاً أنك ستتصلين فى الأيام الماضية لتسألى عن أحوالى ، عشت وهماً بأنك قد تكونين هى . بابتسامة مندهشة سألته : « هى ؟ » .

أشعل سيجارة أخرى وما تزال الأولى تثير دخاناً .. تثير فضولى .

يقول : « هل أكون مبالغاً لو قلت اننى منذ لقائنا الأول وأنا أشعر بأشياء مشتركة بيننا ، شيء ما قوى يدفعنى إليك . سطورك قريبة جداً من إحساسى وأحلامى ، أحببت جرأتك فى التعبير عن الحياة . وقد نفسر هذا كشفى لحياتى دون حرج.وبعد هذا اللقاء ، تخيلتك كما أنت ، تلك الإنسانة التى تعوضنى عن فراغ حياتى وتعيد إلىّ لهفة الاشتياق والحب .. اعتقدت أنك تريدننى أكثر من علاقة عمل » . يسكت .. يأخذ نفساً عميقاً وينظر إلىّ .

أتأمل ملامحه العذبة .. أتذكر إعجابى بما يكتب، أتذكر إعجابى الأول بعينيه ، أستعيد احترامى لصراحته واهتمامه . لا أنكر كل هذا الإعجاب ، لكننى أعرف حدوده . هل أفسر له الأمر ، هل أشرح نوع الإعجاب .. هل أوضح الحدود .

لكن هل من حقه معرفة كل أسبابى ؟ من حقه أن أكون واضحة وصادقة منذ البداية . لم أصادف فى حياتى موقفاً بهذا الشكل .

قلت : « أقدر شعورك ، وأتمنى أن تقدر أنت أيضاً اعتذارى . لا أعتقد أنك تريد أكثر من هذه الصراحة » . سكت . خالجنى شعور أننى كنت مختصرة أكثر من اللازم ولم أوضح تماماً الأمر .

قال : « هل هذا قرار أخير . ألست مترددة » .

أدهشنى سؤاله وقلت : « بالطبع لست مترددة » .

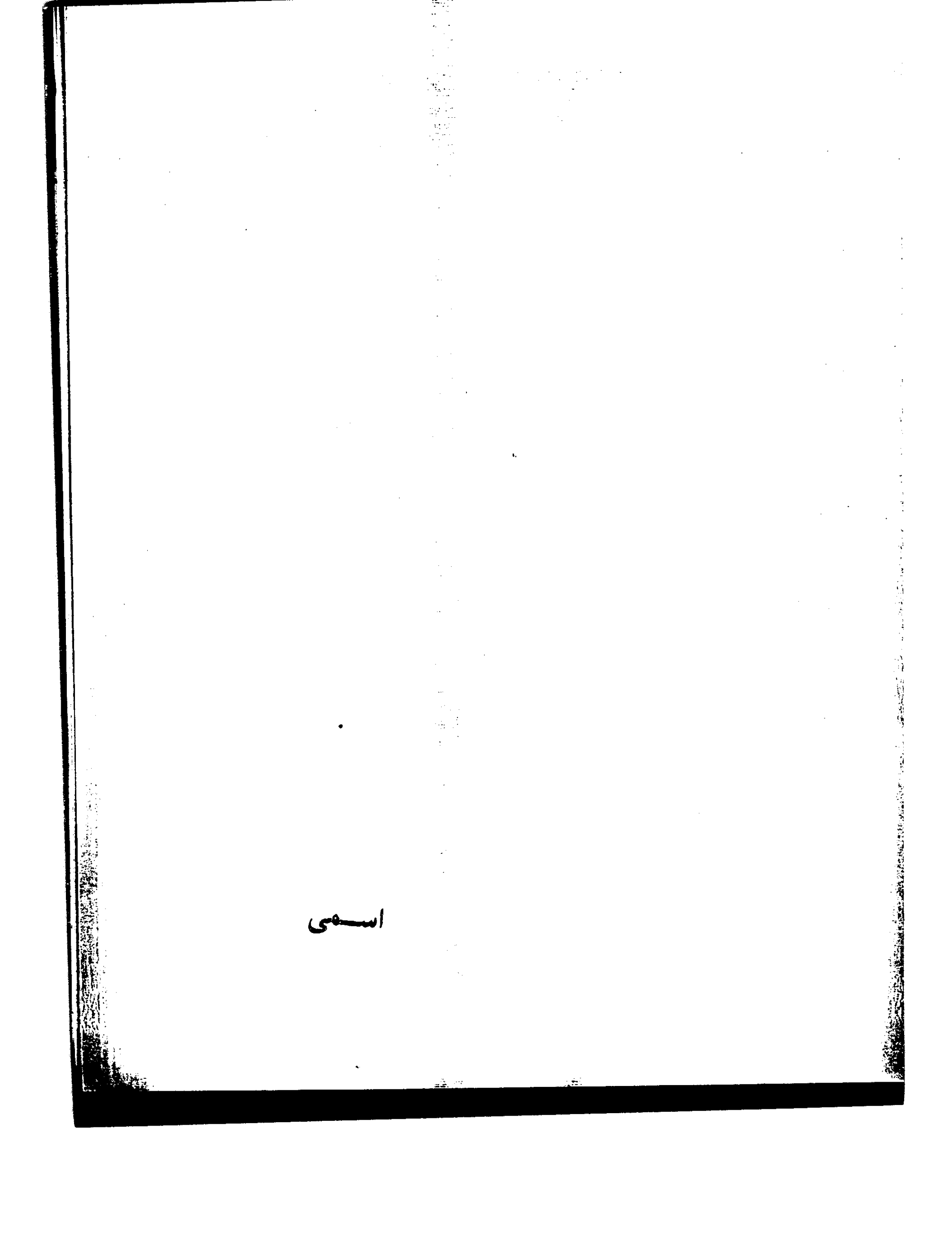
سألته وأنا متجهة نحو الباب : « هل أنتظر قصتى فى عدد الغد » .

يقول بابتسامة غامضة أخرى وهو يمد يده مودعاً « احتمال . رجائى أن

تفهمى الوسط الذى نعمل فيه ، لا شىء مضمون ! .

مرت عدة أسابيع وأنا أتابع المجلة وأقلب بلهفة صفحاتها ، لكن الظروف الطارئة كانت تحتل كل المساحة . اندهشت .. استعدت لقائى معه .. استعدت مذاق فنجان القهوة ، استعدت فرحتى التى لامست السماء .. واستعدت الابتسامة الغامضة ، آخر شىء منه .

تمر أسابيع أخرى .. تصدر أعداد جديدة من المجلة . لم أعد أتلهف وأنا أقلب سطورها ، كنت واثقة من استمرار الظروف الطارئة .



اسمی

الليلة الميلاد الثامن عشر لأخي الوحيد .

الحجرة الصغيرة ذات الديكور الخشبي ، تشع ألفة غير مألوفة كثيراً .. وعلى غير عادتها تتسع ترحيباً بالصديقات والأصدقاء ، جاءوا بابتسامات مفتوحة وهدايا مغلقة تتمنى ارضاء الشاب الصغير .

على ضوء الشموع يقف أخي بقامته الفارعة في منتصف الحجرة ... ينظر إلينا ، بعينين امتزج فيهما البريق والأمل . يبتسم ابتسامته المقبلة دائماً على الحياة ويجذب نفساً عميقاً يظلم معه المكان لثوان .

بدأت حركة الأطباق وتداخلت أصوات اختيار أصناف الحلويات والمشروبات . أكلنا وشربنا كثيراً .. ضحكنا أكثر .

قلت : « ما زال الوقت مبكراً ، ما رأيكم في الخروج » . ضمست صديقة وسارعت بالرد : « لا شيء أجمل من الموسيقى والرقص » . تعالت الأصوات بالموافقة .

كنا عشرة ، ورعنا أنفسنا على السيارتين الموجودتين وانطلقنا إلى فندق مشهور بتقديمه أحدث الألحان الغربية .

عند المدخل ثلاث تنبيهات :

« خمس جنيهات حد أدنى للفرد

عشر جنيهات يومي الخميس والجمعة .

ممنوع ارتداء الجينز » .

بسرعة تلقائية تبادلنا نظرات متفحصة وابتسمنا .

ولأننى صاحبة الدعوة ، تقدمت إلى الفتاة المسئولة عن حجز الأماكن وطلبت مائدة لعشر أشخاص . بابتسامة قالت « بكل سرور » سألتنى باسم مَنْ . قلت : « اسمى . وقبل أن أكمل حروفه القليلة ، قاطعتنى مندهشة وقد فارقتها ابتسامتها » « نعم ؟! آسفة جداً .. اسم حضرتك لا يصلح » . اقتربت منها خطوة وسألتها « هذا تعنين أنه لا يصلح » . ردت : أقصد أننا نكتب اسم رجل ، أى رجل معكم « قلت » كلهم ضيوف الليلة ، بما فيهم أخى الذى نحتفل بعيد ميلاده ، قالت : بنصف ابتسامة : « كل سنة وهو طيب يا افندم ، لا توجد مشكلة إذن . ما اسمه لأكتبه فى الدفتر » . قلت « شىء غريب . أنت تخلقين المشكلة ، لم لا تكتبين اسمى . أنا الأخت الأكبر ، والأهم اننى صاحبة الدعوة » بنفاذ صبر ترد : « النظام لدينا هنا أن نكتب اسم رجل » .

تساءل الضيوف عن سبب التأخير . تركت الفتاة وذهبت أشرح لهم الأمر ولدهشتى لم يندهشوا . وجاءنى الرد : « كيف لا تعرفين أنه نظام متبع فى كل أماكن الرقص . ماذا يعنى اسمك أو اسم أى رجل .. المهم الرقص » . وبسرعة تقدم صديق وقال للفتاة : « يمكنك أخذ اسمى .. » لحقت به وقلت غاضبة « لا .. لن أتنازل . لا أقبل هذه الإهانة » ردت الفتاة وقد عادت إليها ابتسامتها : « على العكس يا افندم ، هذا نظام وُضع أساساً للحفاظ على المرأة وكرامتها » . دهشتى تسألها : « حفاظاً على المرأة » . انخفض صوتها وهى تحاول شرح الأمر ، « انها أول مرة نضطر فيها لتوضيح مثل هذه الأمور . هناك بعض الفتيات يأتين دون علم أسرهن . هناك سيدات يأتين مع رجال غير أزواجهن وهناك مَنْ قد يرى اسمك فى الدفتر فيسهل عليه معاكستك ، وهناك .. وهناك ، وقد رأينا أنه منعاً للإحراج وللحفاظ على المرأة وكرامتها أن

نأخذ اسم الرجل فى كل الأحوال » .

أنظر إليها شاردة فى منطق الحفاظ على المرأة وكرامتها .. قلت « اطمئنى أنا هنا بعلم أسرتى .. صديقاتى أيضاً .. لست متزوجة .. أعتقد أن هذه حالة استثنائية يمكنك فيها كتابة اسمى » . لم ترد .

تعالت أصوات الضيوف متعجلين الرقص وقد انسابت إلى مسامعهم الموسيقى سريعة الإيقاع . نظرت إلى أخى .. بادلنى نظرة تفهم لموقفى . لكن تفهمه لم يكن كافياً لاقناع الفتاة . صديق آخر معنا .. أقربهم إلى ما يدور داخلى . تقدم إلى الفتاة وحاول فتح أفق جديد فى نظام الفندق ، لكنه عاد حاملاً الأفق القديم ونظرة حائرة .

قالت احدى الصديقات : « ليس هذا وقت الدخول فى قضية الرجل والمرأة . جئنا لنسعد بالوقت ، فلا داعى لأن نفسدى الليلة .. أى اسم لا يهم .. المهم الرقص » . صدمنى المنطق وبهدوء قلت : « إفساد الليلة أم إفساد كرامتى أيهما أهم . ألا يمكننى السهر والاستمتاع بكرامتى .. أهى مثل قماش الجينز .. » .

ما زلنا واقفين نتناقش فى الأمر ، وإذا بشاب طويل ذو شعر مجعد يرتدى لون الزى الذى ترتديه الفتاة . اقترب منى قائلاً : « نحن نعمل وفقاً لنظام وأعتقد أنك عرفت الأسباب » . قلت : « نعم ، عرفت الأسباب ، لكنها لا تخصنى .. نظامكم لا ينطبق علىّ . اكتب اسمى وأنا متحملة النتائج » . لحظة صمت . ثم أرسل نظرة رقيقة قائلاً : « هذه أول مرة تحدث لكننى أحترم رغبتك وأكثر منه إصرارك » .

توجه إلى الفتاة .. قال لها شيئاً لم أسمعه .. اقترب مرة أخرى هذه المرة بابتسامة تقول « يمكنك اعطاء اسمك الآن وأتمنى لكم وقتاً ممتعاً » .

لحظة تمر ، لا أعتقد أننى عشت مثلها من قبل . الفتاة تمسك بالقلم ، تسألنى عن اسمى .. أنطق حروفه القليلة بنبرة صوت تجعل كل حرف لغة قائمة بذاتها . تأملت الفتاة وهى تكتب اسمى .. اقتربت أكثر من الدفتر لأتأكد أنه هناك . شعرت فى هذا الوقت ، أن الكتابة لم تكتشف فى العالم إلا لهذه اللحظة .

قادتنا الفتاة إلى مكان الرقص وهى ترمقنى بنظرات متداخلة المعانى . المكان مضاء بالشموع .. من أعلى دائرة الرقص الرخامية تظهر الأضواء الملونة وتختفى .. وعبر الهواء تنساب نغمات تداعب كل رغبات الانطلاق . فتيات وفتيان يقتربون ويبتعدون فى خفة ومرح . المشرفون على الطلبات يمرون بين الموائد فى حركات مستجيبة للأنغام الراقصة .

جو يدعو إلى التبسط ونسيان الهموم أحسست لحظتها أن الدنيا اختصرت إلى ضوء شمعة .. شراب مثلج ورقصة منطلقة .

قمنا نرقص نحن العشرة فى وقت واحد . رقصت كأنها المرة الأولى والأخيرة . ليس لأننى أعشق الرقص فقط ، ليس لحلاوة الإيقاع فقط وليس لأن من رقصت معه يفهم حركتى . لكننى تذكرت اسمى المكتوب فى الدفتر اخترق أسماء الرجال ، اخترق النظام . رقصت بانتشاء معه ولا أتذكر أن رجلاً ما أسعدنى فى الرقص ، مثلما أسعدنى الرقص مع كل حرف من حروف اسمى .

بعد الرقص .. استرخيت على المقعد وطلبت عصير طماطم مثلج . للطماطم مذاق جديد .. قطرات العرق تداعب وجهى بشكل جديد .

وأخذت أرقب من مكانى الأجسام الرشيقة الراقصة ، متلونة مرة بالأخضر .. مرة بالأحمر .. وأخرى بالأصفر .. أو تلك الجالسة على ضوء الشموع . ثياب النساء فى غاية الأناقة والإثارة .. أحدث موديلات العالم .. يجلسن فى الضوء الخافت .. يدخن .. يشربن .. ترن ضحكاتهن فى المكان ..

يرقصن على أحدث الألحان الغربية .. وكلما خفتت الموسيقى يقتربن من الرجل المصاحب بلهفة .. يهمسن .. يغمض عيونهن فى نشوة حالمة .. يفعلن كل شيء .. لكنهن لا يكتبن أسماءهن .

خطيئته السابقة

كان بإمكانى تصديق كل الأشياء غير القابلة للتصديق . كان بإمكانى التفكير والتأمل فى أشياء غير قابلة للتفكير والتأمل .

وكنت أستطيع تخيل نفسى فى أقصى حالات الاستجابة إلى التغير . كل فكرة ، كل أشكال العلاقات بين البشر ، كل أحكام القدر ، كل منطق يربك الأمان ويعيد تشكيل قناعات المنطق ، والأحداث كلها بقسوتها وغرابتها ، كانت تبدو لى بديهية مسلم بها كبديهية الميلاد فى لحظة والموت فى لحظة ، إذا قارنتها بشىء واحد .

شىء واحد أسعدنى حدوثه .. أسعدنى صموده .

وكنت على يقين أنه لن يتوقف ، حتى لو توقفت الشمس عن الشروق .. حتى لو بطل مفعول الموت ولو انتهى الظلم عن الوجود .

شىء واحد ، حكيت عنه لأوراقى المبعثرة فيننابها ترتيب مفاجىء.للحشيش الأخضر المرحب بحركتى الحرة .. لزرقة السماء حين تسألنى عن أحلامى المؤجلة ، فتؤجل السؤال . حكيت عنه لقهوة الصباح المركزة جداً فتذوب من فرط سحر غرابته أو غرابة سحره .. هدوء الليل وأنا أقاوم أرقاً لا رقة فيه ، لكنه يرق لحظة اعتراف وسريعاً يعود إلى قسوته . وحكيت عنه لخيالى المجنون فتمنى العقل ليستوعب جمال الأمر . شىء واحد ، كان يجعلنى أجرى إلى أختى الوحيدة الساكنة بعيداً — غير مبالية بالبرد والظلام ، لتراه بريقاً فى عينىّ .

شيء واحد — دون معرفتي — ارتسم على ملامحي فيبتسم كل مَنْ يراني وتعيرني الابتسامة .

شيء واحد — بعد تاريخ طويل مرهق من معاشرة الصور ، يسمح لي — بسخاء — أن أعانق الأصل .

والآن ، حدث ما ظننته المستحيل واللامعقول .

حدث الجنون .

الآن تغير ذلك الشيء الواحد ..

تغير « احساسي بك » .

تغير في الوقت الذي وصلنا فيه إلى توافق نادر بين امرأة ورجل في زمن يصعب فيه التوافق .

تغير ، في وقت حصاد ثمرة العشق .

تغير ، في اليوم — وياللمفارقة — الذي نكمل فيه عاماً من بدء المعرفة ، ونستعد للاحتفال .

منذ الليلة الأولى وأنا يشغلني هذا الاحتفال . كيف ؟ وأين ؟ وماذا أقدم هدية لك .

وجاء الاحتفال في المكان الذي احتوى أول لقاء . وجاءت هديتي خاتماً من الفضة ، كتبت داخله كلمة واحدة « أربدك » وبجانبها تاريخ ذكرى العشق .

وطول الليل ظللت أحلم بالحظة لمس يديك ، لأزين بالخاتم أصبعك ولتزين بفرحتك آفاق رؤيتي .

الضوء الخافت يتوارى استحياءاً ، إذ رأى عينيك في المكان معي . النيل يبتسم لي .. أنا أبتسم لك .. الهواء بيننا فرح وكل شيء حولنا — دون أدنى

بدأت أول لحظة فى عامنا الثانى ، بأجمل بداية ممكنة .. بدأت بصوتك الرقيق يقول : « كل سنة وأنت جزء من حياتى » .

أشرد لحظة ، يسألنى : « فيم تشردين ؟ هل أخطأت التمنى ؟ » قلت : « ذكرتنى أمنيتك بالفرق بينى وبينك . أنا أيضاً أريدك دائماً جزءاً من حياتى . المهم ما موقع هذا الجزء من حياتك أو حياتى » .

يرد : « ألا تعرفين بعد عام عشناه معاً يوم بيوم ؟ » .

قلت : « موقع هام وأساسى ، أليس كذلك ؟ » .

بجملته المعهودة يرد : « بالضبط هكذا الأمر » .

أرد : « لا أعنى الأهمية . أعنى تعاملنا معها . الفرق بيننا هو انك تريد منى ما يسمح به القدر . وأنا أريد منك ما لا يسمح به القدر » .

قال : « وليكن . لكننا ــ حتى الآن ــ سعداء معاً . وشىء جميل أننا لم نسمح لهذا الفرق أن يؤثر على علاقتنا . ثم كفانا نقاش . جئنا لنحتفل ونتذكر ما بيننا وليس لتذكر ما ليس بيننا » .

بابتسامة تعانق رغبته أقول : « معك كل الحق » .

قاطعنى قائلاً : « أريد أن يكون معى الحق ، ولكننى أيضاً أريد أن يكون معى قلبك » .

قلت : « قلبى والحق مترادفان » .

يسألنى : « هل هذا يفسر اطمئنانى وسعادتى حين تقتربين ؟ » .

لم أرد . شردت فى الفرق الهائل من الفرح وأنا معه . فرق لا أرتوى أبداً منه . فرق يفرق بينى وبين آلام عشتها وأخرى أنتظرها ... فرق يجعلنى أشعر

أنني مضطرة للاعتذار لكل نساء الدنيا ، لأنه يغير مجرى الفرح الممكن فى الدنيا من حولى . فرق لا يجرؤ على الحدوث إلا فى وجود عينيه ، ويجعلنى — فجأة — أشعر أننى امرأة . أمر غير وارد مع كل الآخرين .

أفيق من الفرح الشارد على رقته تسألنى : « مرة أخرى تشردين » ؟ أقول : « لا تلومنى فأنت السبب » .

تذكرت الهدية . ترددت لحظة . أعرف أنه لا يحب تقديم هدية لأحد ، أو أن تقدم له هدية ، أياً كانت المناسبة ومهما كانت درجة عمق المعرفة . لكننى الليلة لا أقدم هدية .

قلت : « لك عندى شىء » .

يقول رافعاً فنجان الشاى برشفة يد أحببتها : « حقاً » .

ناولته العلبة القطيفة السوداء بمحتوية الخاتم . فتحها ، دقق النظر داخلها .. نظر إلىّ .. أعاد التدقيق داخل العلبة ، ثم سألنى : « ما هذا ؟ » قلت : « ألن تقرأ ما كتبت داخله ؟ » .

لحظات صمت تمر بعد قراءته الكلمة ..

سألنى : « هل كان لا بد من ... » .

لم أدعه يكمل « أرجوك ، أقدم فقط اختصار شديد لإحساسى بك » .

بابتسامته التى تذكرنى دوماً بلحظة شروق الشمس ، يقول : « أعرف أن الشكر لا يكفى . إلا أننى أشكرك ، ومرتين . مرة على هديتك ومرة على كلمتك » .

احتضن يده اليمنى وأقول « طوال ليلة الأمس وأنا أحلم أننى ألبسها هذا الخاتم . فهل تسمح بتحول الحلم إلى حقيقة ؟ » .

قال : « لكنك تعرفين أنها مشغولة بخاتم آخر » .

قلت : « تعني خاتم خطيبتك السابقة . بالطبع أعرف . لكنك قلت أنه لا يعني شيئاً لك إلا التعود . يمكنك الآن التعود على خاتم آخر » .

قال : « بهذه البساطة تطلبين مني أن أخلعه » .

أوقفتني الجملة حقاً . نظرت إليه ببعض عدم الفهم .. ببعض الاندهاش وقلت : « لا أظن أن الأمر يحتاج إلى تعقيد أو بساطة » .

قال : « أوافقك تماماً . ولا داعي أن نضيع الوقت في مناقشة أمر بسيط لا يستحق كهذا . سأحتفظ بالخاتم ضمن محتوياتي .. » .

« انتظر لحظة من فضلك » . أقاطعه دون اعتذار .

« محتوياتك ؟ لا أعتقد أنك جاد ، لا بد أنك تهزر .. هل تعني أنك لن تخلع خاتم خطيبتك السابقة ؟ » .

يرد : « ولم أفعل شيئاً كهذا » ؟.

تساؤله يخيفني .. يربكني . أشعر أنني أستدرج إلى ضآلة لا أستحقها أقاومها وأكمل : « لم تكن إذن صريحاً معي » .

قال : « منذ أول يوم وحتى الآن ، وأنا لم أكن إلا الصادق معك ، كيف تدعين شيئاً بسيطاً كهذا يخلق الشك بيننا ؟ أرجوك ، لا تفسدي ليلتنا .. أنت أكبر من هذا بكثير . ولا أتصور مثل أية فتاة تقليدية تثيرها هذه الأشياء » .

قلت : « لا تحاول تجاوز الأمر . هناك حلقة مفقودة لا تريد الاعتراف بها . قل إنك مازلت تحبها .. قل إن الخاتم يذكرك بأشياء بينكما لاتريد الابتعاد عنها ..

قبل انك تنوى إعادة الخطبة .. تعرف جيداً أننى أقدر هذه الأمور .. أقدر الصدق ولا أرغب إلا فى الفهم . لكن أن تؤكد لى أن الخاتم ليس إلا مسألة تعود وترفض استبداله بهذا الإصرار .. فهذا أمر فيه استخفاف بعقلى وبغير شكرٍ لكن » .

قال : « تعرفين جيداً ، أننى لا أنوى خطبتها مرة أخرى فنحن فقط أصدقاء أعزاء الآن . وليس وارداً أن نكون أكثر من ذلك » .

سألته « وليس وارداً أيضاً أن تخلع الخاتم » .

قال : « الأمر فقط مسألة مبدأ » .

« مبدأ ؟ أى مبدأ هذا يسمح لك بإيلامى من أجل شىء تؤكد أنه لا يعنى شيئاً إلا التعود » . أسأله مندهشة .

بنظرة واثقة يرسلها إلى عينىّ ويقول « الحرية ؟ أليست مبدأ ؟ بل ومبدؤك أنت على الأخص وبشكل مميز وصريح ؟ ثم أننى لا أفهم كيف يؤلمك شىء بسيط كهذا ؟ » .

الدهشة تزداد وتسأله : « وهل فى تلبيى هذا انتهاك لحريتك ؟ » .

يرد . « بالتأكيد . فأنا أريد الاستمرار فى استخدام شىء وأنت تطالبينى بعدم استخدامه . لقد أهدتنى خطيبتى السابقة هذه الساعة الذهبية .. كما أهدتنى جهاز تسجيل لسيارتى . هل تطالبينى بالمنطق نفسه أن ألقى بهما فى سلة المهملات ؟ عهدتك دائماً عاقلة .. متزنة غير كل النساء .. كم يدهشنى موقفك ؟ . »

الدهشة تتحول إلى مزيج غريب من المرارة والذهول وأشياء أخرى لا أعرفها . أقاومها وأستمر فى حوار غريب عنى . أرد : « استخدام الهدايا شىء والاحتفاظ بخاتم خطوبة سابق شىء آخر . خاتم الخطوبة أصلاً لم يبتدعه الناس

للاستخدام ، أنه رمز للارتباط . تصور نفسك مكانى ، هل كنت تشعر بالألم ؟ » .

يرد : « لا أستطيع الحكم إلا إذا عشت الموقف . ولو افترضنا جدلاً أننى شعرت بالضيق ، فهذه مشكلتى وحدى . لن أفرض عليك أبداً رغبتى أو إرادتى لن أعطى نفسى الحق مهما كانت حدود علاقتنا » .

قلت : « أصلاً ، لن يحدث هذا . ولا أعتقد أنه أمر طبيعى الحدوث » . يقول بعد لحظة صمت « هل تفضلين أن أخلعه فى كل مرة أراك ، ثم أعيده إليه بعد اللقاء ؟ هل تذكرين ، منذ أول يوم وهو فى أصبعى . لو كنت أخفى شيئاً لخلعته أوقات رؤيتك . أليس كذلك » ؛ قلت : « لست أدرى » .

قال : « لو أعدت التفكير ، لأدركت أن طلبك هذا تدخلاً فى حريتى » أشعر كأننى أتفرج على حوار . لست أنا وليس هو ، وليس كل ما بيننا . لم أتصور أننى معه يمكن أن أتضاءل إلى هذا الحد . تضاؤل يجعلنى راغبة فى سؤال أخير أكرهه ، لكننى أتحمل وأسأله .

« ألن تخلعه ارضاءاً لى ، خاصة أنه مجرد تعود ، ورغم إدراكك أننى على وعى دائماً بتجربتك ؟ » .

دون أية لحظة تفكير يعطينى الجواب : « أعتقد أن هذا ليس من حقك » . « ليس من حقى » .. الجملة تخترقنى كهزة أرضية مفاجئة فى مدينة لم تعهد إلا الأمان .

« ليس من حقى » يعرف جيداً أننى لم أكن يوماً — ولن أكون — قيداً على حقوقه . بل إننا استطعنا الاستمرار طوال العام الماضى أساساً لأننى حريصة على حريته وهو حريص على حريتى .

« ليس من حقى » .. والسبب الحرية .. لم أدرك مثل الآن ، أن كثيراً من

الرذائل يمكن أن يُرتكب باسم الحرية .

« ليس من حقى » .. وأنا التى منحته بسخاء — لا ينتظر السؤال ، ولا ينتظر المقابل — كل الحقوق ، المعلنة والخفية . القانونية وغير القانونية . الطبيعية والاستثنائية .. الدائم منها والمؤقتة .. الغريبة و[illegible] .

« ليس من حقى ؟ .. أهذا هو درس العشق منك بعد شهر ؟! بعد لحظات من الصمت والشرود ، أحسست بيده فوق يدى .

قال : « أرجوك ، لا تفسدى ما بيننا بسبب أمر لا يستحق . تعرفين مكانتك لدى .. تعرفين أننى معك أحس بأشياء لأول مرة .. تعرفين كم أحترمك .. كم أحببت الشىء عنك .. كم أحرص عليك .. تعرفين ... ؟ » .

لم أشعر بأى كلمة . تركز إحساسى فى يده التى تحرك على لمس يدى وهى مصرة على الخاتم القديم . كيف يحاول إرضائى وهو يلمسنى باسم امرأة أخرى تحيط معصمه ، وربما وجدانه أيضاً .

أبعدت يدى بحركة سريعة ، تنتفض دهشة ونفوراً .. نهضت واقفة نظرت إلى فاتورة الحساب . وكالعادة وضعت نصف المبلغ . رغم اتفاقنا أنه صاحب الدعوة الليلة .

قلت : « أريد أن أكون متمردة . أظن أن هذا على الأقل من حقى » .

تركته وفى عينيه دهشة تسأل ألف سؤال .

فى طريق عودتى ، أفكر .

قدر عشقى له ، قدر اهتمامى به وقدر حرصى عليه . قدر فقدانى القدرة على الحكم .

هل أنا المخطئة ؟ هل بالغت فى الأمر ؟ هل تحولت إلى فتاة تقليدية ذات أفق محدود ترغب فى التملك ؟ هل فى طلبى انتهاك حقاً لحريته ؟ هل هو صادق ؟ أم

يخفى شيئاً ويتستر وراء الحرية ، هل منطقه مقنع ؟ هل أفسدت ما بيننا كما يدعى ؟ هل ؟ وهل ؟..

تساؤلات تعذبني .. يعذبني أكثر عجزي عن إيجاد الجواب .

لا أعرف هل سأعود إليه وكيف سأعود ؟ وإذا حدث هذا فمتى ؟ لا أعرف طرفاً محايداً يساعدني في الحكم على الأمر .. لا أعرف أحداً ترك خطيبته وأصر على خاتم المخطوبة بمثل هذا الإصرار .. لا أعرف عشقاً لا حقوق له ... لا أعرف غيره في حياتي يستحق العشق .. لا أعرف مكانتي الحقيقية لديه الآن .. لاأعرف إحساسه الحقيقي بخطيبته السابقة .. لاأعرف سبب إصراري الشديد أن الأخرى . أهو غيرة .. ضآلة .. إحساس بالجرح والألم .. أم رغبة في الفهم والتسلق . لا أعرف إن كان سيبادر بالاتصال . وماذا سيكون موقفه .. هل يزيد الشرخ ؟ هل يعتذر ؟ هل يزيد الإصرار ؟ هل يفاجئني باقتناعه ؟.. أم نهائياً سيتحول إلى حين انتهائي .

ولاأعرف لو كان هناك امرأة في العالم تتحمل مثل هذا الوضع ، دون أدنى شعور بالألم والشك .

ولا أعرف لماذا بالتحديد يحدث هذا ونحن نحتفل بأول ميلاد للعشق .

لكنني أعرف شيئاً واحداً : حدث شرخ في الإحساس به ، وحدثت ثغرة في الاطمئنان إليه .

حتى لو خلع خاتم خطيبته السابقة يوماً ما لسبب ما ، أعرف أن الشرخ سيظل موجوداً ، وأن الثغرة ستظل هناك .

الدائرة

حينما كانت أصابع يدى خالية من الدوائر الذهبية ، كان يزورنى فى مكان عملى . يجلس مواجهاً لمكتبى مأخوذاً بمكانتى ، بدقتى فى مراجعة الأوراق ، ويندهش لتلك الأهمية التى تكتسبها فور توقيعى عليها . يقول وهو يشرب القهوة : « تعجبنى المرأة العاملة ذات الوضع المتميز » وأتذكر مرة جاءنى بعد خلاف وقع بينى وبين رئيستى فى العمل ، فإذا به يشجعنى على التمسك بموقفى . وحين أكدت له أننى لن أتراجع ، حتى لو اضطررت للاستقالة قال : « أحترم المرأة التى تدافع عن رأيها الحر » .

كنا نلتقى مرتين كل أسبوع . وفى إحدى المرات اتصل تليفونياً يسألنى تغيير الموعد بسبب ظرف طارىء واقترح يوم الأربعاء . قلت : « أقدر ما حدث ، لكننى أخصص يوم الأربعاء للجرى والسباحة .. لا أستطيع تأجيل رياضتى ، هل تقدر أنت الآخر اعتذارى ؟ ». بعد لحظة صمت رد قائلاً : « أقدر وأفهم جيداً . تعجبنى المرأة التى تمارس الرياضة ، الآن عرفت سر رشاقتك ونضارة وجهك » .

وقبل استقرار الدائرة الذهبية الحاملة اسمه فى يدى اليمنى بأسبوع واحد ، رآنى فى الطريق مع آخر عرفته به قائلة : « هذا فلان صديقى كنا فى ندوة أدبية تناقش قصتى الأخيرة . والآن نحن ذاهبان إلى نادى السينما ، لم لاتشاركنا إذا رغبت ؟ » .

فى اليوم التالى قال وهو يحتضن يدى : « أحسدك على هذا التنوع الخصب

تعذبه التساؤلات : « مَنْ يا ترى إلهامى ، أهى تجربة خاصة ، هل عشتها قبل معرفته ، بعد معرفته .. لِمَنْ تلك المشاعر المتوهجة فى القصيدة؟ » .

لم يعد يفهم صداقتى بزملائى الفنانين من الرجال .. بل لم يعد يتقبلها . بعد كل تليفون من زميل ، بعد كل لقاء مع صديق فى ندوة أدبية أو فى نادى السينما ، يتساءل باندهاش يدهشنى : « لماذا تصادقين رجلاً وأنا موجود » . وعرفت ، ويا لقسوة المعرفة أحياناً . عرفت أنه لا يتصور صداقة بين المرأة والرجل إلا لأربع دوافع محددة . إما للتخطيط للزواج ، للتسلية ، أو فرصة لبيع الجسد أو قتل ملل الزواج . بالطبع استبعد الدافع الأول لأننى لا أستطيع ممارسة تعدد الأزواج . وظلت الدوافع الثلاث الأخرى تحاصرنى بالشكوك . والأخطر من هذا أنه يحاول اقناعى بأن كلا من الرجل والمرأة لا يمكن أن يجتمعا إلا على المستوى البيولوجى العابر .

دافعت عن نفسى المتهمة .. دافعت عن قناعات عقلى . أدافع دون سلاح .. دون اقتناع أننى حقيقة فى هذا الموقف . وحين امتدت جرأته إلى السؤال : « لماذا أنا هكذا ، لماذا أصلاً أكتب .. لماذا لا أطيع » . عرفت أننى رغماً عنى استُدرجت إلى معركة ، تجبرنى على التسلح .

ما زال جالساً أمامى مشعلاً سيجارة كرهت رائحتها ، تصيبنى بغثيان ودوار لكننى لا أتهاوى .

تماسكت .. فكرت .. تذكرت شيئاً .. أشياءاً .. قررت .

نزعت الدائرة الذهبية . رفع رأسه باندهاش .. ألقيتها فى منفضدة السجائر . دهشته تتحول إلى ملامح غاضبة . التقطت حقيبتى واتجهت نحو الباب قائلة : « ليس كافياً وليس قانونياً أننى لا أريدك ، أليس كذلك ؟ بالنسبة إلى قانونى أنا ، فالأمر كاف » . لم أنتظر تحول غضبه إلى أمر آخر وأسرعت بالنزول .

على الطريق الممتد مع النيل ، تمضى بى سيارتى الصغيرة . إحساس أفتقده منذ زمن يداعبنى . أعرف أننى أنهيت الأمر . أعرف أننى لن أتردد كعادتى أحياناً بعد الاستقرار على قرار ، وأنها الليلة الأخيرة فى بقائى زوجته وفقاً لقانونى الخاص فى الأحوال الشخصية .

وأعرف أننى أمتلك هذه السيارة الصغيرة .. وأمتلك الشقة التى نسكن فيها .. وأمتلك دخلاً معقولاً .. وأمتلك رصيداً كبيراً فى البنك ، وأمتلك قطعة أرض فى الريف .. وأمتلك سمعة أدبية مميزة . لكننى لا أعرف هل فى هذا الزمن ، يكفى امتلاك الإنسان للأشياء ، ليمتلك حريته ؟!

هل هو أمر متعمد . زمن يسهل علينا امتلاك الأشياء ، ليعوض بها عجزه عن ضمان امتلاكنا لحريتنا ؟ .

لا أعرف إلى أين أنا ذاهبة الآن ، بيت أسرتى ، بيت أخى ، بيت أختى . غرفة مفردة فى إحدى الفنادق . أم أستمر فى القيادة حتى أصل إلى بيت الأسرة فى الريف وأظل هناك فترة .

لا أعرف لماذا وكيف تغير بهذا الشكل المضر له .

لا أعرف كيف تحول دائرة ذهبية كل فضيلة أحبها فىّ إلى رذيلة ، الآن تنفره .

لا أعرف إن كانت فكرتى عن المشاعر والزواج قد تغيرت . هل سأثق برجل آخر بعد ذلك ؟ لا أعرف .. وماذا أسمى العام الماضى ؟ وماذا أسمى نفسى ؟ لا أعرف ..

أشياء كثيرة لا أعرفها تداخلت داخلى فى لحظة واحدة .

لكننى ــ على الأقل ــ أعرف شيئين بمنتهى الدقة والتأكد : أعرف أنه بالرغم من تبعثر وفوضى أفكارى ، إلا ن مبادئى لم تفقد ترتيبها :

والشيء الآخر الذى أعرفه بل وألمسه : أن أصابعي عادت — كعادتها —
الية من الدوائر الذهبية .

أجمل يوم اختلفنا فيه

صخرة بعيدة ، نقف عليها ، نرى الدنيا من أعلى ونشتاق معاً إلى دفء الشاطىء .. أعرفه منذ أول مرة أمسكت بالقلم وكتبت .

منذ الأسبوع الأول من عمرى وأنا أعرفه .. بل منذ ليلة مولدى هى الأخرى كانت ليلة أحد .

منذ اليوم الحادى عشر وحتى اليوم الثامن عشر ، ونحن — بتمهل — نتعجل الاقتراب . العمر قبل اللقاء يحكى تاريخ ثمانية وعشرين عاماً . لكننا استطعنا اختصار كل أربع سنوات فى يوم ، فإذا به بعد أسبوع يعيش عمرى وأنا بعد أسبوع أعيش عمره . لم يكن الأمر سهلاً .. لم يكن مألوفاً ولم يكن مؤكداً . لكن حلاوة عينيه، رقة مشاعره ، وعمق اهتمامه ، جعلت الأمر سهلاً .. مألوفاً ومؤكداً. والأجمل ، جعلته ضرورة ممتعة . ضرورة لأننى أحسست أن لقاءنا مرتب من القدر منذ زمن . ممتعة ، لأننى التى اختارت هذا القدر .

عمره قبلى حدد فلسفة للحياة تختلف عن فلسفتى . لكننا منذ أول لقاء اتفقنا على أن نحرص على اختلافنا . اتفقنا على أن نستمع لآرائنا كما نستمع لدقات قلبينا .

مازلت أذكر اليوم الرابع من الأسبوع ، الموافق الأربعاء ، الرابع عشر من الشهر الحادى عشر . المكان حولنا يسمح برؤية صفحة النيل المسافرة فى اللون الأسود ، وأنغام هادئة تناسب مرحبة بنا . كنا نتناقش فى أمور الدين . اختلفت رؤيتنا منذ البداية . هو يراه الجوهر والشكل بالدرجة نفسها من الأهمية ، وأنا أركز إيمانى على الجوهر . قال : « طالما آمنت بوجود الرب فعلىّ التوفيق بين الشكل والجوهر » . قلت : « أؤمن مثلك بوجود الرب ، لكننى أعتقد أن ما فرضه من شكل ليس إلا وسيلة لضمان تحقق الجوهر » .

لم يقتنع .. ولم أقتنع ولم نصل إلى نقطة فى المنتصف . لكن يالدهشتى

ويالسعادتى كم ازددنا حباً واقتراباً بعد هذا الحوار .

كم يحيرنى الاختلاف معه . اننى كثيراً ما أختلف مع الناس ، بل لا أذكر معهم إلا الاختلاف ، المصحوب بالضيق والتوتر . معه .. الأمر مختلف لا أعرف الضيق أو التوتر ، بل تشملنى فرحة لم آلفها من قبل . تساءلت عن سرها وما زلت لا أعرف إجابة . وتزداد حيرتى لأننا نختلف فى أساسيات الحياة ، ورغم هذا فإن رغبتنا فى مشاركة الحياة معاً لا تفتر بعد مرات الخلاف . وتتعقد الحيرة ، حين أشعر أن هذا الاختلاف يجذبنى إليه ، ويضفى ، على علاقتنا سحراً غامضاً كلون عينيه ، فهذا عكس كل ما آلفته أفكارى ، واستقرت عليه قناعاتى .

وجاء اليوم الأخير من الأسبوع ، الموافق الأحد ، الموافق الثامن عشر من الشهر الحادى عشر ، نجلس فى مكان مغلق ، لكن اتساع الدنيا كله ينساب من عينيه مرحباً باقترابى ، فأجرى مغمضة العينين ولا أصطدم بالمائدة ذات المفرش الأخضر الفاصلة بيننا .

سألنى : « هل أعترف لك بأمر ما يشغلنى » . قلت : « مشتاقة لأى شيء منك » . سكت لحظة ثم قال : « اننى مدين لك بإعادة الانسجام فى علاقتى بأمى » . أوقفنى الكلام عن شرب عصير الطماطم المثلج .. سخونة تتدفق إلى وجهى وبريق مندهش وفرح يسأله دون سؤال . فيكمل : « منذ رحيل أبى وهى تزداد عصبية وشعوراً بالوحدة . اننى أقدر حالتها . فهى لا تشعر فقط بالحزن ، لكنها تفتقد أختى وأخى منذ زواجهما وتركهما المنزل ». سألته : « لكنك تقيم معها ، أليس كذلك » . قال : « نعم نقتسم معاً الشقة ، لكننا لا نقتسم الحياة . نادراً ما أجلس معها وإذا حدث هذا يكون صدفة . فأنا أذهب إلى عملى مبكراً فى الصباح ولا أعود قبل السادسة وغالباً ما أخرج فى المساء . وحين أعود تكون نائمة أو تستعد للنوم . وهكذا تمر الأيام بيننا . قد

ول الغذاء معاً فى بعض أيام الأجازات ، ولا يتطرق الحديث بيننا إلا لأمور
ة . لا تتصورى كم كان يؤلمنى إحساسى بأننى بعيد عنها وأنها بعيدة عنى .
لم أكثر حين أتذكر أننى لم أحاول إسعاد أبى وهو على قيد الحياة . لا أريد
يتكرر هذا مع أمى » .

يسكت مرة أخرى . هذه المرة أطول . فى عينيه دموع متراكمة .. فى
ن دعوة له أن يطلق سراحها ويلبى الدعوة . لحظات من الصمت تمر بيننا .
، فيها دموعه ، لأول مرة . أرى فيها دموع رجل لأول مرة . مَنْ قال إن
جل القوى لا يبكى . بحركة رقيقة تذوب اشتياقاً اقتربت من دموعه ،
نها ، لم أكن أريد إيقافها أو تجفيفها ، أردت فقط التعرف عليها . كانت
يه فى حرارتها .. بريقها .. وتدفقها المتردد . انتظرته حتى آخر دمعة .
، : « لم تقل لى كيف عاد الانسجام بينكما » .

قال : « عاد بلكِ . لقد فكرت كثيراً فى علاقتنا . وحارنى ذلك الاختلاف
ى لا يفعل شيئاً إلا أن يزيد تقاربنا . سألت نفسى لماذا أريد الاستمرار معك
م أننا لا نتفق كثيراً ، لماذا أريد أن أحبك وأنت كما أنت . وأعادتنى
ؤلاتى إلى الماضى . وجدتنى أتذكر كل أخرى عرفتها قبلك ، تذكرت
قتى بأختى .. بأخى الكبير ، تذكرت طفولتى وأبى ، تذكرت أمى .
كرتها أكثر من مرة ، أكثر من أى أحد ، وتوقفت عند تذكرها » . يتوقف
الحديث ، يأخذ نظرة من عينى .. يأخذ رشفة من فنجان القهوة الذى يحن
ماً لقليل من السكر ، لكنه مصر على الوفاء لعشق نقاء القهوة .

يكمل حديثه : « وحين تذكرتها ، أحببتها أكثر وعرفت السر الحائر بينى
نك . تذكرت أننى منذ إدراكى للحياة وأنا أرى أمى إنسانة متميزة عن كل
ات أقاربى وأصدقائى ، مختلفة عن كل الأمهات اللائى يظهرن فى الأفلام
تمثيليات . لا أذكر مرة أبى رفع صوته عليها أو سألها عن ملابسه . لا أتذكر

إلا وقوفها دائماً بجانب رغباتنا . خاصة مع أختى . لا أتذكر أبى أو أخى الكبير أو أنا حاول التدخل فى حياة أختى أو أن أحداً منا توقع أن تخدمه بشكل أو بآخر ، لمجرد أنها البنت فى الأسرة . تساءلت كثيراً عن سر قوتها وتميزها . فهى هادئة .. رقيقة .. لم تكن تكبر أبى ، ليست بارعة الجمال .. ليست ثرية ولا تحمل شهادات عليا كبعض أمهات معارفى . وتغير الأمر بعد أن عرفتك . عرفت الجواب لكثير من تساؤلاتى .. عرفت لماذا أنجذب إلى إنسانة مثلك تعشق حريتها ، عرفت سبب نفورى عن الأخريات اللائى حاولن التدخل فى حريتى . عرفت لماذا لم يمنعنى اختلافنا عن احترامك والرغبة فى أن أحبك .. إنها أمى . فهى مثلك تختلف معى فى أشياء كثيرة ، لكن هذا لم يمنع حبى لها . هل ترين مدى التشابه فى علاقتى معها ، وعلاقتى بك . بهذا الاكتشاف الذى دفعتينى إليه ، عاد الانسجام معها . الآن أجلس معها .. أتحدث إليها وأحاول مشاركتها فى وحدتها . بالأمس مثلاً دعوتها إلى العشاء خارج المنزل . كانت أول مرة نخرج فيها معاً . ولا تتصورى مدى استمتاعى . اكتشفت فيها جمالاً مختبئاً تحت التجاعيد .. وحكمة لا تجد مَنْ يأخذها . هى أيضاً تكتشف ابنها من جديد وتندهش فى صمت لهذا التحول الغريب . لم نعد كما كنا — قبل معرفتك — غريبين . فقط ، هذا أعترافى .. فهل أبدو واضحاً الآن » .

بالفعل بدا واضحاً . لكن الأهم أنه بدا أكثر جمالاً ورقة . عرفت قبله كثيرين ، لا أذكر أحداً قال لى شيئاً بهذا السحر . لا أذكر أن كلمات أحد منهم استطاعت — حتى فى أجمل اللحظات وأجمل الأماكن — أن تذيبنى حباً مثل كلماته المنسابة فى هذا المكان المغلق .

أفقت من خواطرى على صوته يسألنى : « ما رأيك ، نزور « النيل » صديقك الليلة » . قلت : « سيبدو أجمل ونحن معاً » . طلب الحساب من الجرسون ، وبينما يستعد لإخراج النقود قلت له : « لتكن ضيفى الليلة .. سأدفع أنا الحساب » . توقفت يده عن لمس النقود وبتردد قال : « بالطبع

يسعدنى تلبية دعوتك ، لكن ... » .

أعرف سبب تردده فقد ناقشنا من قبل مسألة من يدفع الحساب . وهو لا يعترض على المبدأ لكنه لم يألف أن تدفع صديقته الحساب أمام الناس ، بينما هو يجلس متفرجاً .

وأذكر أننى وقتها لم أحاول الخوض فى هذا الأمر وإن لم أتوقف عن التفكير فيه . الليلة ، بداخلى إصرار على أن يألف الوضع .

سألته « قل لى بصراحة ، هل هو الخجل الذى ستشعر به إذا دفعت أنا الحساب » . بعد لحظة تحاشى فيها عينىّ قال : « نعم » . أكمل محتضنة صراحته المترددة : « لماذا ؟ هل يهمك كثيراً نظرة الجرسون وزبائن المحل » . عادت إلىّ عيناه بالجواب حتى هذه اللحظة أعتقد كذلك سألته : « تعتقد أنهم سيصفونك بنقص الرجولة ؟ أم يقولون اننى أنفق عليك أو أنك بخيل أو فقير .. ماذا بالتحديد الذى يهمك ويقلقك » . قال : « حين تناقشنا المرة السابقة ، لم تسألينى عن الأسباب » . قلت بابتسامة : « ألست معى أن الليلة مختلفة » . استقبل الرد بابتسامة تضن علىّ بجمالها . سألته : « هل أنت مقتنع بأننا مختلفان وأن لعلاقتنا مقاييس غير مقاييس الجرسون والزبائن » . بابتسامة أكثر كرماً قال : « أعتقد أن هذه المناقشة دليل كاف على اختلافنا » . قلت : «اسمح لى أن أسألك ، ماأهم فى رأيك نظرة الجرسون أم إحساسك بأننا نخلق معاً علاقة جديدة . أيهما أهم لديك نظرة الجرسون إليك أم نظرتى أنا إليك » . يسكت لحظات ، كاد أن يقول شيئاً ، لكنه عاد إلى الصمت .

جاء الجرسون ووضع فاتورة الحساب أمامه .. عيناه تنظران إلى كل شىء فى المكان إلا أنا . عاد الجرسون ووقف ينتظر الدفع ، فتحت كيس النقود وناولته المبلغ . الجرسون يحملق نحوه وهو ما زال صامتاً .. مطرقاً . أشعر بما يدور داخله . لكل شىء جديد مرة أولى وقد بدأت الليلة .

أغلقت الكيس ورفعت عينى ، فوجدت عينيه وقد عادتا من الأطراقة تنظران إلى الجرسون بنظرة جديدة . ويقول له بعد الصمت « شكراً » ويقول لى : « تأخرنا كثيراً على « النيل » صديقك ، فهل نسرع » ؟

لون شينيه

مازلنا نستضيف الشتاء فى دنيانا المتواضعة .

ولكن اليوم ليس ككل أيام الشتاء الماضية . الشمس اليوم حرة . تمردت على احتجابها الطويل ، وانتزعت من عمق السحاب ، مكاناً لها تطل منه على مَنْ يرتعشون .

تحول انكماشى إلى امتداد يرغب فى احتضان العالم ، وتحولت رعشتى إلى ذكرى .

أخذتنى خطواتى إلى تلك المساحة الواسعة ، المرحبة دائماً بوحدتى ، ولحظات الدفء المفاجئة . تحتضننى بلونها الأخضر ، برائحة الحشيش المندى ، بصوت الهدوء يسألنى فى صمت : لماذا أتأخر فى المجىء ؟

سألت نفسى إلى متى سأظل هنا فى هذا الركن ذى المقعد الوحيد المختبىء بين الأشجار ؟ ما الذى يمكن أن يحدث فى العالم لو جربت اليوم ، اليوم فقط ، الجلوس فى ذلك الركن البعيد ، المزدحم دائماً بالمقاعد وفناجين القهوة ؟ سأترك نفسى اليوم لشىء جديد .

اندهشت نفسى لتواجدها فجأة — على غير ما اعتادت — وسط كلام وضحكات وحركة لا تهدأ . سحبت كرسياً آخر لأسمح لجسمى المعتاد على التقلص أن يسترخى ، ويرحب بحرية الشمس تتجول على امتداده .

سرت رعشة دافئة فى كيانى المدد وكأنها تحية للشمس التى انتزعت اليوم حريتها .

أغمضت عينى وشردت فى خاطر واحد شغلنى وشاركنى الدفء : ترى :
أستطيع انتزاع بعض الحرية من هذه الأشعة المتخللة كيانى ، حتى إن غابت
ـمس ، وعادت الغيوم ، تكون شمس أخرى قد تولدت داخلى ؟

فتحت عينى . رأيته على امتداد آفاق رؤيتى . يجلس مواجهاً لوحدتى
ـاطرى الحائر .. وحيداً هو الآخر .. ممدداً هو الآخر .. فى عينيه رغبة فى
ظات استرخاء دافىء . أعجبنى فزادت رعشتى الدافئة . التقت عينانا صدفة
البعد الفاصل بيننا . التقت عينانا مرة أخرى . بل توحدت فى نظرة متأملة
ـة رغم الحركة الدائمة بيننا . تبادلنا إرسال الدفء خلال هذه النظرة المصرة
الثبات . توقف بعض الناس أمام نظراتنا المتوحدة .. الرغبة داخلنا لم
ـقف . لم يرنى للحظة ، لم أره للحظة . كان يجب أن نفعل شيئاً . ما زالت
شـخاص بيننا تتكلم ، تضحك وتقطع علينا ذلك الاتصال الهوائى المسافر من
ـمس . قاوم .. اعتدل فى جلسته وراح ينقل نظرته خلال الهواء الفارغ
ـصره الأجسام المعتدية . قاومت أنا الأخرى .. تحركت يميناً ، تحركت
ـاراً .. أحاول التقاط هذا المجهود من عينيه .. أحاول مرة أخرى رؤية عينيه .
أن اكتشفنا ثغرة فى الهواء ، حرة من الاعتداء .

تمسكنا بها ، وملأناها بنظرات أخرى أكثر توحداً ، أكثر رغبة فى الدفء .
ـسمت له فرحة بالانتصار ، رد الابتسامة بأجمل منها . وخلال أشعة الشمس
ـسارية بيننا ، قلت له — دون خوفى المعتاد ، دون حرجى المألوف — مَنْ
. ابتسم مرة أخرى . ابتسامته هذه المرة أجمل .. أعمق ، أحسستها تحتضن
ترافى .

وعلى المسافة المحتوية انفعالنا ، قال لى : مَنْ هو : لم يكن بحاجة إلى أن
ـرح له ، ولم أبذل جهداً لأن أفهمه .. لم يستغرق الأمر كله إلا نظرة .

شعرت أننى أعرفه منذ أول شعاع شمس على الأرض ، وأرغب فى مزيد من

المعرفة . فكرت ، أعدت التفكير . قررت .. كل هذا ونظرتى ما زالت إليه ثابتة .. غارقة فى لون عينيه الذى لم أكتشفه بعد . وكأنه شعر بما يدور داخلى ، لأنه تحرك قليلاً .. سكن لحظة ، وكاد أن ينهض بالوقوف ، لكننى أسرعت بالنهوض قبل أن يفعل . قلت فى نفسى : إن كنت حقاً راغبة فى معرفته ، وإن كنت قد قررت ، فلم أتحرك أنا . كرهت ومللت وجودى « المفعول به » دائماً . يجب أن تكون البداية هذه المرة مختلفة منذ البداية ولأتحمل كل نتائج إرادتى الحرة ، كل مسئوليات وجودى « الفاعل » .

توجهت نحوه .. بعض من أشعة الشمس على ملامحه فبدت أكثر عذوبة . وقبل أن أصل إلى حدوده ، وجدته واقفاً أمامى بقوام رشيق ، يكاد يلمس الشمس ، تلفه درجة من اللون البنى دافئة ، وأحبها . يقف أمامى بكل أحلام المستقبل . أقف أمامه ، وورائى كل الماضى المرهق ممتداً بطول خيالى . قامتنا طويلة متساوية ، تتنافسان على لمس الشمس الحرة ، مما شجعنى أكثر . قلت له « لا تندهش ، فأنا أشعر أننى أعرفك » .

ولأول مرة تنتقل نظرته من عينى إلى الأرض . لكن هذا التحول لم يطل ، لأنه اقترب خطوة مخترقاً شعاعاً آخر يسرى بيننا ، وقد استعاد نظرته التى افتقدتها . قال : « لست مندهشاً بل سعيداً . فكرت فى المبادرة نفسها ، لكننى فضلت منك البداية ، حتى لا أفرض عليك انفعالات دافئة مفاجئة ، قد تكون هى كل ما تريدين هذا الشتاء » . قلت : « إحساس جميل لم آلفه من قبل يلح برقة أن أقترب منك . أشعر أن هناك رحلة تنتظرنا فى الحياة » . ذابت بيننا الحدود . أرسلت الشمس مزيداً من الأشعة .

لحظة صمت قصيرة جداً مرت بيننا ، لكنها كانت كافية لأن يعيد إلىّ دعوة السفر موقعة بموافقته ، وأن ألم حاجاتى . سارت خطواتنا بعيداً عن الزحام .. تجاه الشمس الحرة .

معاً نسير ، لا أعرف إلى أين ، لا أعرف من أين نبدأ ، لكنني الآن أعرف لون عينيه .

الخدعة

الهواء حولى غير كاف ، وملوث بعدم التوافق مع رئتاى . أنا وهذا الهواء تاريخ قديم قدم احتياجى للتنفس ، تقبلت — بمرور الوقت — الأمر ، تقبلى لزرقة السماء وتعاقب الليل والنهار . واعتدت عليه اعتيادى على ملامحى وطول قامتى .

فلم أعد أتذكر . بل لم أعد أبالى وتوقفت رئتاى عن الشكوى .

لكن الليلة تتمرد رئتاى ولا أعرف مبرراً للتمرد .

ويحيرنى أكثر عجزى عن المقاومة . فقد مللت الخروج والكلام ، الصمت واليقظة ، مللت النوم والأحلام .. مللت الاسترخاء وبيدى كتاب . حتى أن أكتب ، أمر ، بدا مفتقداً للمعنى بل مفتقداً للدافع . فى هذه اللحظة أحس كل الناس ، وكل الأشياء سيان .

وفجأة تذكرت أننى لم أشاهد التليفزيون منذ فترة طويلة . فكرت لم لا أعطيه الفرصة ، كما أعطيتها مخترعات الحياة الأخرى . قد ينجح ، قد تهدأ رئتاى .

جلست قريبة من الشاشة الملونة . تذكرت فى هذه اللحظة .. إنسان رقيق فى حياتى ، أتذكره يقول جملته المتكررة : « رجائى ألا تقتربين من الشاشة إلى هذه الدرجة » .

أرد وأنا أتخذ خطوة أكثر قرباً من الشاشة : « يسعدنى حرصك على عينىّ ، لكننى لا استطيع التركيز إلا بالاقتراب الشديد». ابتسمت لهذا الخاطر وكدت أقرر اللجوء إليه . لكننى قاومت . دائماً حريصة على عدم فرض أزماتى على أحد ، خاصة عليه .

على الشاشة يظهر رجل دو ابتسامة مرحبة يقول : « برنامج الرياضة للجميع اليوم ، حلقة خاصة عن مسابقات جرى المسافات القصيرة للنساء والرجال » اقترب أكثر من الشاشة الملونة . ومع كل فقرة جرى ، شيء ما يجرى داخلى . يظهر الرجل مرة أخرى ، تزداد ابتسامته ترحيباً ، ينهى حلقة الجرى بوقفه منه : « فلنشجع كلنا الرياضة . خاصة الجرى . فهو لا يقيدنا بطرف آخر ، ليس مكلفاً كالألعاب الأخرى ، لا يحتاج إلى اشتراك فى نادى ، يحتاج فقط إلى رغبة ومساحة واسعة » .

انتهى البرنامج .. وبدأت رغبتى . أجرى .. نعم ، هذا هو أفضل حل لانتزاع الهواء لرئتى . تذكرت أننى أرى بعض الفتيان يجرون على الكوبرى المجاور . فعلاً لا يحتاج إلى شىء . بداخلى الرغبة وكورنيش النيل القريب ، هو المساحة الواسعة . وتذكرت أننى اشتريت منذ فترة بدلة رياضة خضراء على أمل الاشتراك فى أحد النوادى . ولأننى لم أستطع توفير مبلغ العضوية المقسم بين العملة الصعبة والعملة المحلية ، فقد بقيت طويلاً متكومة تنتظر حركتى .

ارتديت البدلة الخضراء ونزلت إلى الشارع . الشمس رقيقة والنسيم يحاول التفوق عليها . أول شىء استوقفنى كان نظرة البواب وبعض الداخلين إلى العمارة . نظرات من أعلى الشعر المربوط حتى الحذاء الكاوتش . نظرات لم أتبين مقصدها أو دافعها . لم أجهد نفسى فى إيجاد التفسير ، فضّلت ادخار جهدى للجرى .

وصلت إلى الكورنيش وحددت عشرين دقيقة من الجرى المواز لصفحة

النيل . مستعيدة أمامى ابتسامة المذيع المشجعة ، متخيلة نفسى إحدى الفائزات تخترق الهواء بقوام متماسك تقف تستقبل إعجاب الناس وقد اختلط العرق بدموع الفرح ، بدأتُ حركتى ..

لم أعرف ماذا حدث . أصوات متعددة خلفى .. ضجة هائلة تجرى معى .. تتعلق بالبدلة الخضراء .. وتجعلنى فى حاجة إلى قوتين . قوة تحتمل حركتى السريعة ضد الهواء وأخرى تحتمل سيل التعليقات . كل رجل .. كل صبى يمر يتوقف فى ذهول .. يتطلع إلىّ . يضحك .. يصفر ويشير إلىّ بكلمة جارحة . كل السيارات ، نقل عام ، ملاكى .. نقل خضروات .. نقل أثاث ، الموتوسيكلات ، العجل .. كلها تهدىء من حركتها .. تقترب منى وتلقى سخرية. بائع السجائر .. بائع البطاطا وبائع الكوكاكولا ، تركوا زبائنهم وبقية الحساب وتفرغوا لمشاهدتى بأفواه مفتوحة تطلق غزلاً يبدأ بدهشة ثم يتحول إلى شهوة وينتهى إلى الاستهزاء .. حتى النساء تطلعن إلىّ ، صحيح دون تعليقات كالرجال ،لكن فى العيون ذهول ، وعلى الشفاه ضحكات لا تحاول التخفى .

تحول كورنيش العشاق الهادىء إلى مظاهرة قلبت نظام حركتى . توقفت . لم أدر ماذا أفعل وقد اختلط العرق بإحساس لا أعرف له عنواناً . انتهت العشرون دقيقة ولم تنته المظاهرة ، صحبتنى حتى البيت .

وصلت أتلفت حولى .. متلهفة إلى جدار حجرتى .

أنفاسى المنهكة ليست متأكدة من تكرار التجربة .. ليست متأكدة من دخول الهواء للرئتين ، لكنها متأكدة من شىء واحد : خدعتنى ابتسامة المذيع .

[illegible]

[illegible]

المحتويات

رقم الايداع ٨٧/٢١٨٥
ترقيم دولى ١ ـ ٠٥٥ ـ ١٣٣ ـ ٩٧٧

طبع بالمطبعة الفنية ت : ٩١١٨٦٢